

BOBST LIBRARY



3 1142 02887 3092

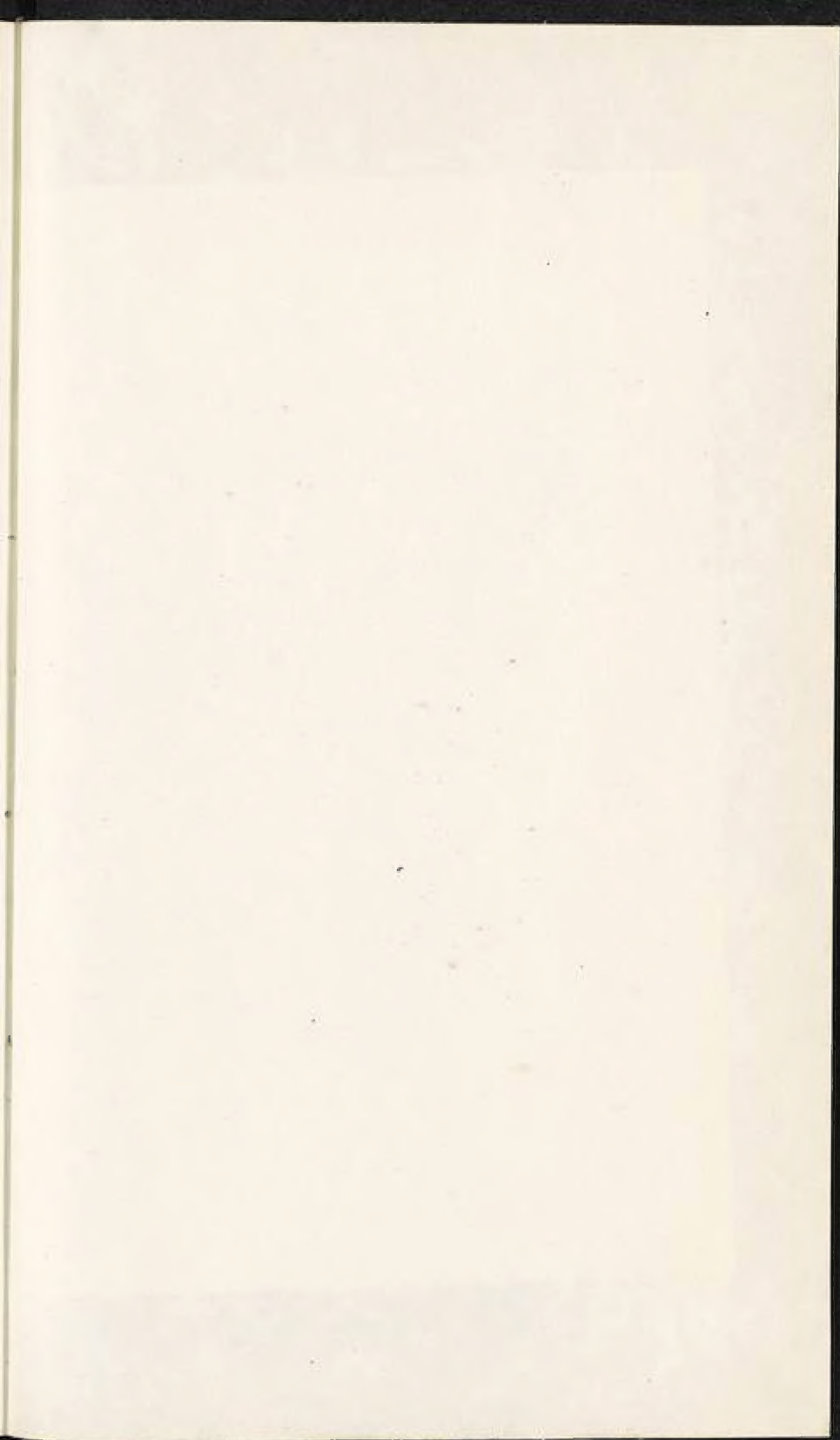
New York University
Bobst Library Circulation Department
70 Washington Square South
York, NY 10012-1091

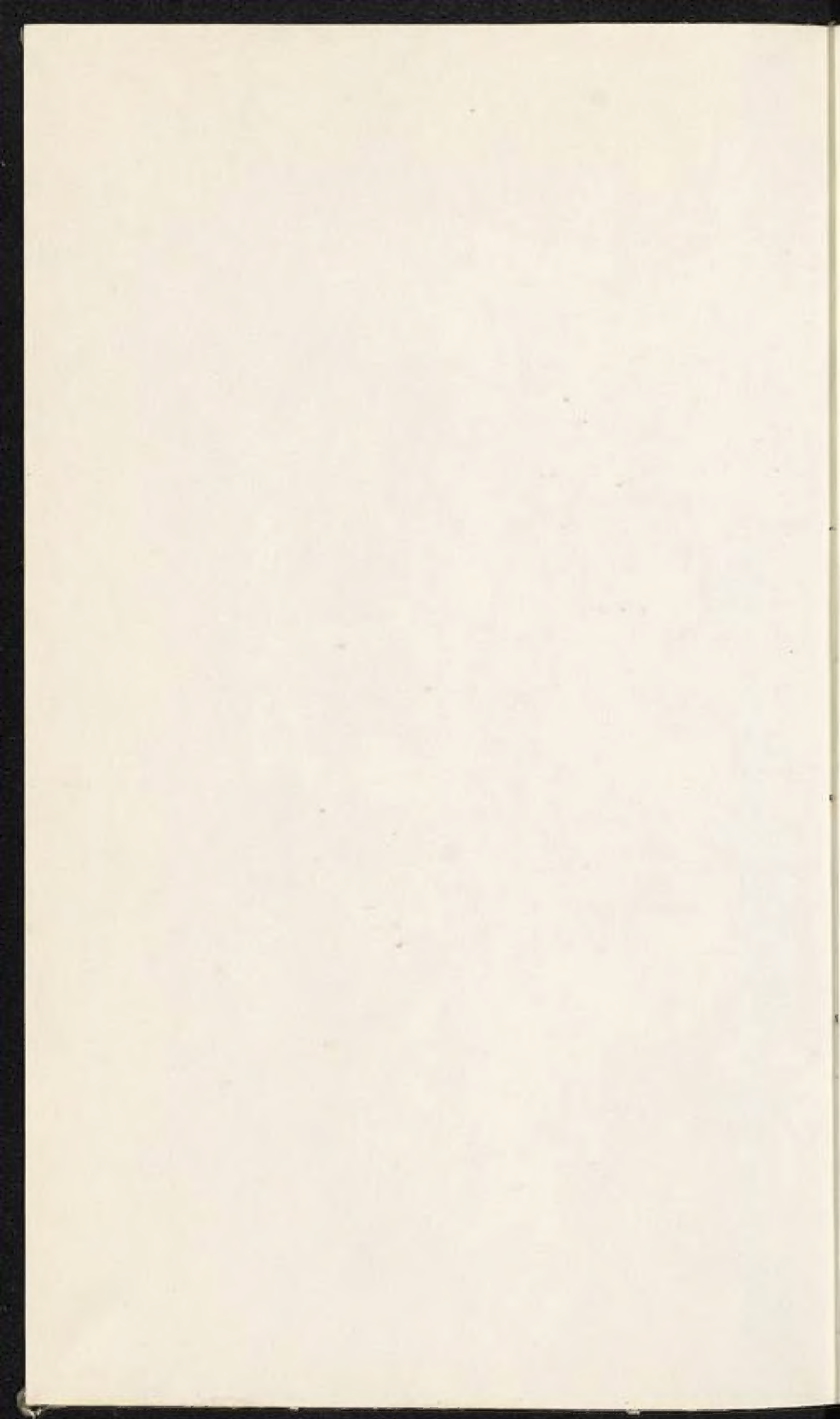
Web Renewal/Info:
<http://library.nyu.edu>
New Phone Renewal:
212-998-2482

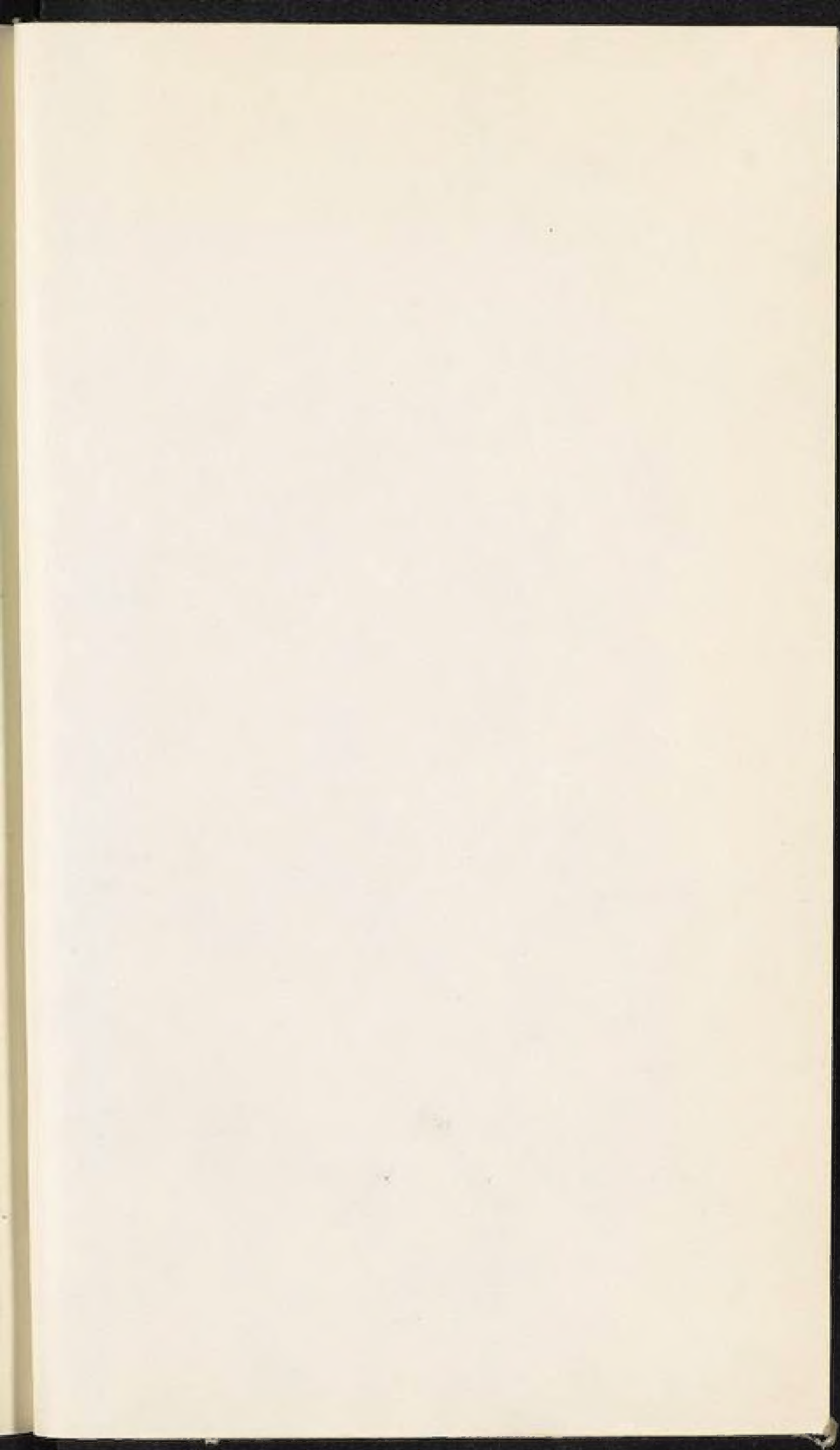
THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME!

RECEIVED
NOV 7 2006
JUN 12 2006
BOBST LIBRARY
CIRCULATION

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING VIA WEB/PHONE!



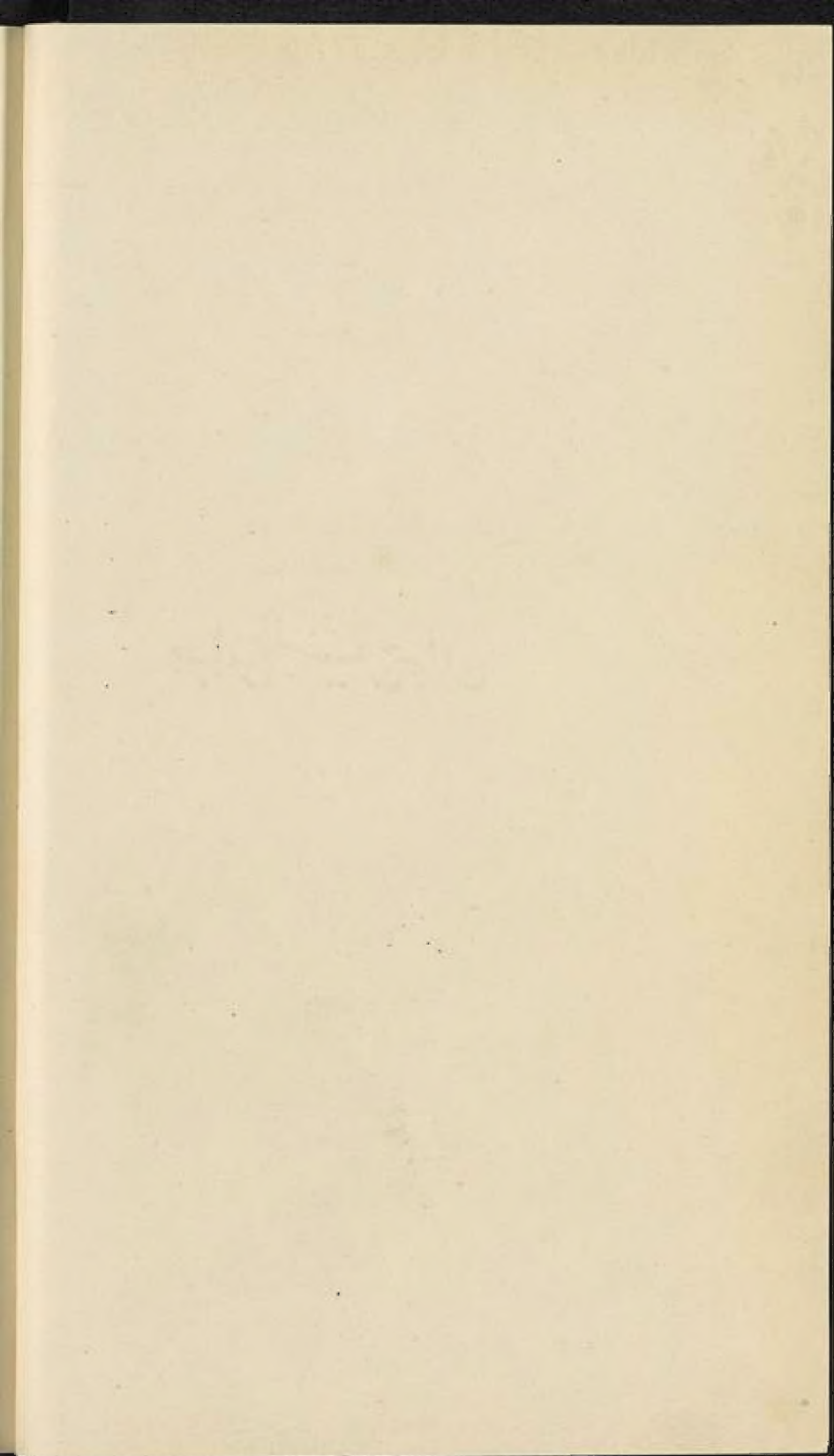




المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

الجزء الأول



6658, 1 Naimy, Mikhail

/ Jibrān Khalīl Jibrān,

المجموعۃ الكاملۃ لمؤلفات

جبران خليل جبران

قدم لها وأشرف على تنسيقها

مينحائيل نعيمة

المقدمة

الموسيقى

عرائس المروج

الأرواح المتمردة

الجزء الاول :



مكتبة صادر

بيروت



الحقوق محفوظة لمكتبة صادر

PJ

7826

I2

Z7

1949

v.1

c.1

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

يعتزّ العالم العربيّ - ولبنان على الأخص - بأنه أنجب كاتباً وفناناً
تفتّح بآياته الروحية والفنية ألوف الألوف في كلّ صقع من أصقاع
الأرض . فـجبران خليل جبران شاعرٌ لنا وللغير بأن الشرق ، وإن
أنهكته صروف الدهر الى حين ، ما نأب عن رسالته ؛ وأنه ما يرح ذلك
الحرّان العجيب الذي كلّما جاءت البشرية وعطشت الى أكثر من
الحب والماء عادت اليه تفتّش عن غذاء وعن رّي . والارث الذي
تركه لنا جبران لا يُشتم بمال . وإنه لمن المؤسف والمخجل ان نراه
مهاناً في دياره .

لقد أوصى جبران ببيع مؤلفاته العربية والانكليزية لبلدته بشري .
ولكنّ ذلك لم يردع المستثمرين في الأقطار العربية عن « غزو » تلك
المؤلفات . إذ راحوا ينشرونها مبعثرة ، مشوّهة ، دوناً استئذان وبغير
ما تمجّص أو ترتيب ، وفي أشكال زريّة يجثّها الذوق . وأقصى مبتغاهم
درهمات يربحونها على عجل . وأمّا أنّ الكثير منهم قد دسّوا في
مؤلفات جبران أشياء ليست له ؛ وأمّا أنهم يقذفون بتلك المؤلفات
الى السوق طافحة بالأغلاط المطبوعة فيسيبّون الى جبران والى القارىء

أكبر الاساءة ؛ وأما أنهم يسرقون حقوقاً ليست لهم - فما في ذلك
كله ما يزعجهم أو ما يحملهم على التفكير فالتكفير .

لذلك رأت « لجنة جبران » في بشري التي لها وحدها الحق في
مؤلفات جبران أن تنصرف حق نشرها فينا ، وأن تكمل لنا أمر طبعها
وتصحيحها وتنسيقها في مجموعة من المجلدات قطعها واحد وشكلها
واحد وورقها واحد كما يتاح لعشاق جبران اقتناؤها كاملة وخالية
من النقص والغش ، وفي حلة تليق بها .

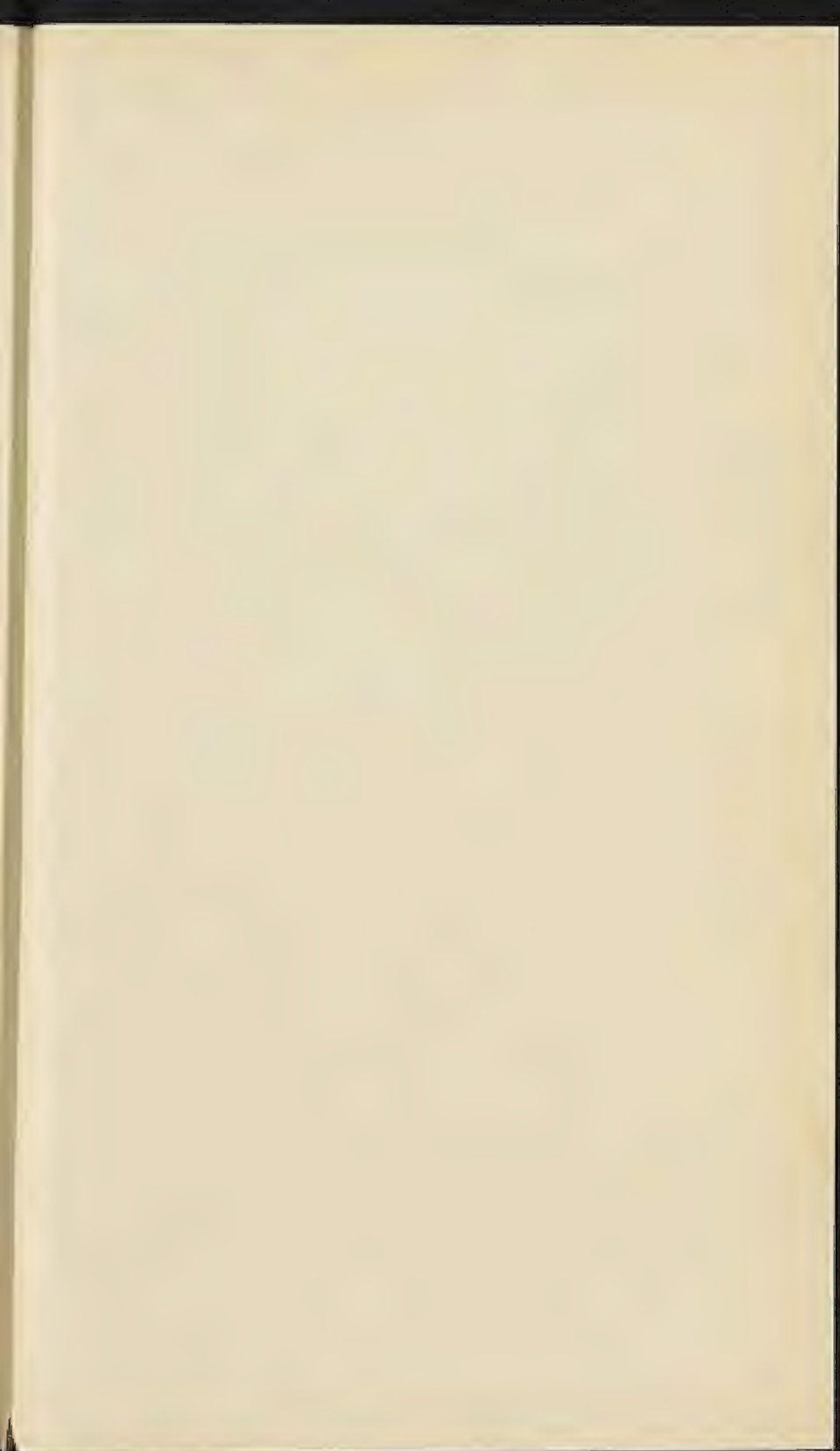
وقد رغبت اللجنة الى صديق جبران ورفيقه - ميخائيل نعيمة -
أن يشرف على تنسيق مؤلفاته العربية وترجمة مؤلفاته الانكليزية
جاعلة قبوله بذلك شرطاً أولياً في تعاقدنا معنا . فما خيب فلما
وفأنا . بل تطوع للعمل شاكراً للجنة نزولها عند رأيه الذي أبداه
من زمان في كتابه « جبران خليل جبران » بشأن مؤلفات صديقه
وحفظها من الفساد . وحسبك منه هذه المقدمة التي وضعها لمؤلفات
جبران العربية والتي سيضع ما ياتلها لمؤلفاته الانكليزية حالما يفرغ
المترجمون من ترجمتها .

بقي أن ننبّه القارئ الى أمرين : أولهما أننا ، مبالغة في الأمانة
لجبران ولتاريخ الأدب العربي ، ما شئنا ان نتعرض لأسلوب جبران
أو لغته بأقل تصحيح أو تغيير . وليس خفياً أن لكل كاتب ،
وبالأخص في بدء نشأته ، هفوات لغوية وبيانية مردّها في الغالب الى
قلة الخبرة والمران . فقد آثرنا أن نبقى على مثل هذه الهفوات إلا
ما كان منها هفوات مطبعية ظاهرة . والأمر الثاني هو أن القارئ لن

في هذه المجموعة كتاباً عنوانه « البدائع والطرائف » . ذلك لأن
كتاب ، إلا القليل منه ، ليس أكثر من مجموعة مقالات ومقاطع
روت في مؤلفات أخرى لجبران . ومن ثم فالعنوان ليس من اختيار
جبران بل من اختيار الناشر . فهو ، من هذا القبيل ، ليس « مؤلفاً »
من مؤلفات جبران مثلما هي « الأجنحة المتكسرة » و « المواكب »
« المراحف » وسواها .

وها نحن نقدم اليوم إلى العالم العربي جبران في آثاره العربية على
أن نقدمه في ترجمات مؤلفاته الانكليزية قريباً إن شاء الله .

مكتبة صادر



جبران في آثاره العربية

يطوي العبقري في خلال عمر واحد أعمار أجيال سبقته ، وأجيال رافقته ، وأجيال تأتي بعده . فيموت ليحيا . ويحيا غيره ليموت .

ويحيا العبقري في قلوب الأجيال لأنه يعطي آلامها الحرساء السنة من نار ، ويمد آلامها المفعمة بأجنحة من نور . فتلحم والدم في كل زمان ومكان مغاور حبيثة تتزاوج في ظلماتها المذات فتتسلل أوجاعاً . وللروح اجواء فسيحة يوردعا الفكر والخيال فيضربان الشرق الى الانعناق من التوجع . والعبقري من استطاع ان يسير الأغوار ويحبب الأعالي وان يعود من تلك وفاته بصورة الإنسان الأمثل «عندة الأسنى» ألا وهو الحياة التي لا تأخذها سنة الموت ، ولا تكبلها قيود اللحم والدم ، ولا تحصرها حدود الزمان والمكان . وجبران كان ذلك العبقري .

في آخر كتاب «دمعة وإيتسامة» مقال غوانه «صوت الشاعر» يتكلم فيه جبران بلسان الشاعر فيقول في جملة ما يقول :

« بحثت لأقول كلمة ، وسأقولها . وإذا أرجعني الموت قبل ان أقطها يقولها الغد . فالغدا لا يترك سرّاً مكتوناً في كتاب اللامية . »

وهو يختم المقال بالمبارة التالية :

« والذي أقوله الآن بلسان واحدٍ يقوله الآتي بالسنة عديدة . »

كان ذلك في عام ١٩١٤ . وعاش جبران من بعدها حتى ربيع
١٩٣١ ، فساح سياحات بعيدة في دنيا التأمل والتبحر والخيال
وتحدث عن سياحاته بريشته البليغة وقلبه الحساس فرسم الكتب
وألف الكثير . ولكنه ارتحل عن هذه الفانية وفي ريشته خطوط
والوان لم تنجم في رسوم ، وبين شقي قلبه انغام وافكار لم تنظم
في مقاطع . واغلب الظن انه لو أُسئل قبيل ان بلغت روحه التراقي
« هل قلت كلارك يا جبران ؟ » لأجاب : « لغزت منها مقاطع . »
الكلمة الكاملة فما قلتها بعد . » ذلك لانه كان يريدنا كلمة شامة
كالحقبة الازلية التي كان ينشدنا بقلبه ، شامة كالمدى اللامتناهي الذي
كان يحسه بروحه ، رائعة كالجمال الساحر الذي كان يلهمه بخياله
وتلك ، لصري ، هي حرفة العبقرية في كل زمان ومكان . فالفنون
التي ابتدعها الانسان حتى اليوم للتعبير عن هواجس النفس لا تزا
اضيق من ان تنسج لكل روضة خيال ، ونبضة شوق ، ورفقة حنين
وملحة من تلك اللوحة العلوية التي يحسها من لمح سناء الحق ولوحة
عابرة . ونحن اذ ندبأ اليها انما نغذال على أنفسنا فتخذوها بجمال الرو
عن جمال المرموز اليه ، ونعويضها عن الصورة الكاملة ملامحاً في
صورة ناقصة ، ومن النعم الامثل فبواب حلوة من انقام منقطعة .

لئن فات جبران ، كما فات غيره من الشعراء والمفكرين والمصلحين
ان يقول الكلمة « الكاملة » فلم يفقه ان يقول الكلمة التي وضعتها
الحياة على لسانه وبين شفثيه وفسحت له من العمر المدى الكافي لقوله

ولقد قالها عالية ، صافية ، جريئة ، بعيدة القرار . وهذه « الكلمة »
 إن تسألني أين تجدوها في مؤلفات جبران أجبك بأنك لن تجدوها في هذا
 الكتاب . أو في ذلك ، ولا في هذه المقطوعة أو هاتيك . بل عليك ،
 إذا شئت أن تعرفها ، بمطالعة كل ما كتبه جبران من « الموسيقى »
 حتى « التأث » . فحياته وأعماله ، مثل حياة أي انسان وأعماله ، وحدة
 لا تتجزأ . وهي كالحلقة يتصل أولها بآخرها . ومن ثم فالارث الذي
 تركه لنا جبران إرث غني . فجدد بنا أن نستمتع به كاملاً ، لا بهذا
 البعض منه دون ذلك .

لقد صدق جبران إذ قال : « والذي أقوله الآن بالإنسان واحد يقوله
 الآتي بالسنة عديدة . » فيها هم قرآؤه اليوم أضعاف أضعاف قراءته يوم
 أن كتب ذلك المقال منذ خمسة وثلاثين من الأعوام . وهم في ازدياد
 مطّرد عاماً بعد عام . وهم تحت كل كوكب ومن شتى الاجناس
 واللغات . فبين حقّه علينا ، بل من حق أنفسنا علينا ، أن نصون
 الارث الذي خلّفه لنا من عبث العابثين ومن جشع المستثمرين .

قافية واربعون عاماً أولها في بشري - لبنان - وآخرها في
 نيويورك من الولايات المتحدة الاميركية : من ١٨٨٣ الى ١٩٣١ -
 تلك هي الفسحة التي اتاحتها الأقدار لجبران ليقول فيها كلمته . وجبران
 الذي كان يؤمن اوثق الإيمان بالتقشص ما كان يحسب ولادته في
 شمالي لبنان مصادفةً عسباء . بل كان يستقدها تنديبة لازمة لحياة سابقة .
 ففي تلك البقعة الغنية بغنائسها الطبيعية وذكرياتهما الدينية ثروة من
 الجبال الذي لم يكن بدّ لعين جبران من أن تكتحل به ولوحه من

ان نستعم^م في جهاته . وقد اغترف جبران من تلك الثروة في صباه
قبل ان يهجر لبنان الى بوسطن سنة ١٨٩٤ ، ثم في شبابه يوم عاد
ليدوس في مدرسة الحكمة البيروتية بين ١٨٩٦ و ١٩٠١ . واغترف
ما يكفي من مؤونة العز . ثم راح ينثر بقلبه ويريشه ما اغترفه من
ذلك الجمال ، وينثره بلباقة الفشان الأمين لفشه وسخاء الشاعر المثقل
بالشعور . فأثت تشتم طيوب لبنان ، وتستشعر سحر اعاليه واغواره ،
ونحس جلاله وجلاله في كل ما تقرأه لمؤلف « النبي » .

من بواكير قلم جبران مقال في الموسيقى ا صدره عام ١٩٠٥ في
نيويورك في شكل كتيب فكان الحلقة الاولى في سلسلة مؤلفاته التي
اخصها بكتابه الانكليزي « الناه » المنشور بعد وفاته . وانت اذ
تطالع « الموسيقى » يستوقفك فيها اول ما يستوقفك نط في الكتابة
يتيسر بسهولة التعبير ، وحلاوة التلون ، ولطافة الوقع ، وصدق
النبة ، وسلامة الذوق ، وعمق الاحساس ، والغزوة الى الابداع في
الوصف والفنيد . فهو يشكك المؤلف من الجناس والمجاز ويجاول
تحصيل الكلمات من المعاني فوق ما تعودت حياه على السنة الكتاب
والشعراء مثلما يجاول تجريدتها من التفاهة والفضول . فيقول لك -
مثلاً - في الموسيقى انها « جسم من الحشاشة له روح من النفس ،
وعقل من القلب . » او يقول : « والالخان في خضائي اشباح الذات
الحقيقية او خيالات الشعائر الحية . » فيشبه الالخان بالاشباح ، ويجعل
لذات اشباحاً ، ويفصل بين الذات الحقة والذات الموهومة ، وبين
المشاعر الحية والمشاعر الميتة ، ثم يجعل للمشاعر خيالات . ومن بعد ان

بمراً سريراً يشق الحالات التي ترافقها الموسيقى ، ويأتي على مكانتها عند مختلف الشعوب ، ويصف تأثير النهند والصبا والرصد من الاغان العربية ، يجتم المقال بما يشبه النشيد في تمجيد الموسيقى والموسيقين من غربيين وشرقيين وينتهي عند هذا القرار :

« كبر ايها الكون الأول بشوا في سمائك انفسهم ، وملأوا الخواء ارواحاً لطيفة ، وعلموا الانسان ان يرى بسمه ، ويسمع بقلبه . آمين . »
وتلقي الكتيب من يدك فلا تشعر انك اكتسبت شيئاً كنت تجهله من علم الموسيقى او فلسفتها . ولكنك تشعر انك شربت جرعة من خبرة بكر لو اتيج لها ان تتعق لكنت اشهى مذاقاً وابعد فعلاً . وتشعر كذلك ان هذا الفتى الذي يكلمك غني القلب ، عزيز النفس ، يكره التقليد ويحاول شق طريق جديد . ولكن عدله لما تكمل بهد .

ومضي عام وبعض العام فيطلع جبران على العالم العربي بكتيب اكبر حجماً وابعد مدى من « الموسيقى » وقد اسماه « عرائس المروج » وضمته قصصاً ثلاثاً : « رماد الاجيال والنار الخالدة » و « مرثا البانيئة » و « يوحنا المجنون » . اما الأولى فحكاية عاشقين عاشا في سنة ١١٦ قبل الميلاد وكان احدهما كاهناً في هياكل بعلبك يوم كانت في ذروة مجدها وجمالها . فما لبث الموت ان اختطف من الكاهن معشوقته وتركه « تائهاً في البوابة البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان . »

« ولكن الاجيال التي تمر وتسحق اعمال الانسان لا تفني احلامه ، ولا تضعف عواطفه » على حد قول جبران . « فالاحلام والعواطف

تبقى بقاء الروح الكلي الخالد. وقد تتوارى حيناً وتجمع آونة متشبهة
بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح . »

لذلك يعود العاشقان الى الأرض في ربيع سنة ١٨٩٠ للميلاد ،
ويعودان الى بعلبك عينها وقد امت هياكلها طولاً . ولكنهما
يعودان في زيج فني يعنى الانعام وقناة قروية غارية القدمين تحصل
جرئتها على كتبها لتسلأها من الجدول ، فتقول القناة لغناها :

« قد اعادت عشوتوت ورجعنا الى هذه الحياة كيلا نخترم ملذات
الحبّ ومجد الشيبه يا حبيبي ! »

ويتعاقب الحبيبان ويسكران بخمرة القبل وينام « كل » منهما ملتقاً
بذراعي الآخر الى ان مال الظل وايقظتهما حرارة الشمس . »

انه ان التسامح الكلي ان ندعو مثل هذه التخييلات قصّة . فغاية
جبران منها ما كانت الاء التدليل على عقيدة تناسخ الأرواح التي
انصلت اليه إما عن طريق المطالعة وإما من افواه بعض معارفه .
والعقيدة أقدم من ان نحدد لها بداية . ولكنها ، كما عن جبران
تصويرها في هذه « القصة » ، أتاحت لقلبه فرصة نادرة فبالت فيها من
فيود العرف والتقليد ويمضي يتفنى بالحب وسحره وجبروته وجماله ،
ويناجي الآلهة ، ويتغزل بحاسن الطبيعة ، ويتغافل في المناوذ القائمة
بين ما ندعوه روحاً وبين ما ندعوه مادة ، ويروي عطشه الى الانعام
العذبة ، والالوان الرقراقة والتشابه المبتكرة .

في الموسيقى تشعر ان الذي يخاطبك في في صوته وعود كثيرة

وفي يديه ثمار لم تنضج بعد . اما في « رماذ الأجيال » فتشعر ان ذلك
 الفني قد برّ ببعض وعوده وان بعض الثمار التي في يديه اصبحت صالحاً
 للأكل . وحسبك منه طائفة من التعابير الجديدة والتشبيه المبتكرة
 امثال قوله : « في تلك الساعة المملوءة بسحر المدراء ، الموحدة بين
 ارواح النيام واحلام الانهابة . » او قوله : « وشعث ثمال المعبودة
 بنقاب لطيف يشبه برقع الاماني المعبط بالقلب البشري . » او قوله :
 « ومات قلبي في داخلي والشهت دموعي في عيني . » ثم حسبك منه
 وهو ما يزال دون الخامسة والعشرين من عمره مجدتك حديث المتصوفين
 عن « المجاعة الروحية » وعن « الذات المتقبسة والذات المغنوية الحقة »
 المتبعة بالاحلام ، المتروفة عن شرائع الانسان وتعاليمه « وعن « ذلك
 الحب الذي نسمعه منكلماتاً عندما تخرس السنة الحياة ونراه متصباً
 كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الأشياء . »

كان فنّ القصة في الأوج عند الفرحة وجنباً عندنا أيام انهوى له
 جبران . ولكن الحياة ما أعدته لذلك الفن فلم يبدع فيه ولم يخلق ،
 وأعدته لفنون اخرى فأبدع فيها وخلق . فقد كانت تسيطر عليه
 طبيعتان متفوقتان : طبيعة الفنان الوجداني المزهف الحسّ والشعور ،
 وطبيعة المبدع والمصالح والواعظ . فالاول لا ينفك ينسج عالمه من
 نفسه نظير ما تنسج دودة القز فيلجتها من خيوط في احشائها . فاذا
 راح بمالح عالمه غير عالمه اعوزته المتدرة على حبك الحوادث وتصوير
 الاشخاص والحالات حبكاً وتصويراً يتناسبان مع الواقع المحسوس
 حتى وان كانت الغاية التي يهدف اليها فوق الحسّ وابعد من الواقع .

والثاني دأبه التفتيش عن مواطن الضعف والوجع في الناس ، حتى إذا وقع عليها انطلق يندد ويبيك ويؤنب وقد ينتهي بأن يصف ما يعتقد الدواء الأوحش والأفجع . وجبران في قصصه يخلق حالات وأشخاصاً تنقصهم أبداً دقة الحبك ، والتصوير الواقعي . ولا غرض له من خلقهم إلا أن يجعل منهم مطايا لقلبه ليقتن ما شاء له الفن في وصف الطبيعة وثنى المشاعر البشرية ، وعلى الأخص تلك التي يغلب فيها التوجع والتفجع والتأسي ، وإلا ليلقي المواقف الجميلة في قساسة الناس وقذارتهم وخسوعهم وفي جمال الحب والحق والحربة وما إليها . هكذا تراه في « مرثا البانيسة » يصور لك فتاة قروية فتيرة الحال ، طاهرة القلب والجسد ، يغويها رجل من المدينة فتحمل منه وتلد غلاماً ثم يبندها وحفلها فتورمها الحاجة في احتضان الدعارة . ويهتدي إليها المؤلف وهي على فراش الموت فيدور بينهما حديث طويل . والبيك فقرات منه :

يقول جبران معزياً :

« ان ادرك الجسد لا تلامس النفس النقية ، والتلويح المتواكمة لا تبيت البذور الحية . وما هذه الحياة سوى بيدل أحزان أندوس عليه أغمار النفوس قبل ان تعطي غلثها . ولكن ويل للسائل المتوكة خارج البيدر . . . النفس يا مرة حاققة ذهبيسة مفروطة من سلسلة الالهية . . . اي يا مرثا ، انت زهرة مسحوقة تحت اقدام الجيران المتفتين في الهياكل البشرية . . . معزى يا مرة يكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة » الخ .

فتجيب مرثا المحضرة :

« نعم . انا مظلومة . انا شهيدة الحيوان المخبىء في الانسان . انا زهرة مسحوقة تحت الأقدام . . . ايها العدل الخفي ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، انت ، انت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهاول . منك وحدك اطلب واليك انضرع ، فارحمني وارح بيمنك ولدي ، ونسلم يسراك روجي . »

ان في ما يقوله المؤلف لمرثا وفي ما تقوله مرثا للمؤلف لكثيراً من حلوة التعبير ، وطلاوة التصوير ، وسمو التفكير . ولكنك تخرج منه وفي مخيلتك صورة لمرثا رسمتها انت ولم يرسمها لك المؤلف . وفي وجدانك مشاعر ايقظتها تخيلاتك ولم يوقظها الكاتب بتشابك الحوادث التي خلقها ولا بدخوله الى قلب تلك الحوادث ، ولا بلباقته في نسيير الحوار بحيث يكشف لك السائر عما في ضمائر المتحاورين وفي قلوبهم . كذلك هي حالك مع جبران في قصته « بوحنا المجنون » . فهو من بعد ان يوقظ فيك الشفقة على بطل القصة والتقزز من فظاظه الرهبان الذين حبسوا عليه عجزه لانها اوتعت القليل من زرع الدير ، يعود فيجعل من ذلك الفنى القروي الساذج خطيباً ولا ديويشين أو شبرون . فاسمعه يخطب في الجماهير المحتشدة في حفلة تكريس كنيسة جديدة مناجياً يسوع الناصري :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى . . . انظر ايها الراعي الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك . . . ان حرائج البائسين المتصاعد

من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون بأسك على العروش ،
وتوايح المحزونين لا تسمعه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر . . .
تعالى ثانية يا يسوع الحلي واطرد باعة الدين من هياكلك . فقد جعلوها
مفاثر تتلوى فيها افاعي روعهم واحتياهم . » الخ .

كان من الطبيعي لجبران المظفور على الصدق والرفق واللين ،
المؤمن بكرامة الانسان والوهية عنصره ، ان يضطدم في بدء تفتحه
الفني والروحي اضطداماً عنيفاً مؤلماً بحسونة الواقع وبراء الحياة
البشرية المكبلة بالتقاليد والشرائع . وكان من الطبيعي لذلك الفني
الطامح الى الانطلاق ، الشاعر بوفرة المواهب المتخلفة في كيانه ،
ان يجرده كل ما لديه من سلاح وعناد فيخوض المعركة واثقاً من انه
سيصرع التنين في النهاية . فما كان يعرف ان ذلك التنين لن يصرع
حتى تصرع الاجساد والارواح التي تغذيه بلحومها واحلامها - اي
حتى تصرع البشرية المذعورة من الجوع ومن نار جهنم . فلبنان في
ذلك الزمان - مثله في هذا الزمان - كانت تسوده اقطاعيتان :
سياسة ودينية . فلا عجب ان اتخذ جبران من تلك الاقطاعيتين اهم
المواضيع للقصص التي صنفها قبل ان اكتسب عدته الفنية والفكرية .
ومواضيعه تكاد تنحصر في اثنين : جور التقاليد البشرية في ما حللته
وحرقته من العلاقات بين المرأة والرجل . وجور الحكام المدينيين
والدينيين في علاقاتهم مع الجماهير التي ندعوها الشعب .

لعل احب الناس الى قلب جبران هو ابن الفطرة وابن الطبيعة
اكان راعي ابقار ، ام كان حراً ائماً عاملاً لا سلاح في يده غير المعول .

ولعل "ابغض الناس اليه هم الذين يتظلمون ابتداء الفطرة والطبيعة ،
فهضمون حقوقهم ويتهنون كرامة الانسان فيهم ، ويقدمون اليهم
السم في الدسم . فهو ما صور في كل ما صور راعياً قبيحاً ، او
فلاحاً خبيثاً ، او عاملاً شريراً . ولا صور حاكماً عادلاً ، او كاهناً
نقيّاً ، او راهباً في قلبه شيء من الايمان والشفقة . ولا صور زوجين
متجانسين متحابين هائنين . وذلك ما يسمح كل قصصه بتلك المسحة
من التصنع او قلّة النضج والخبرة المالية ، التي تجعلها بعيدة عن
صميم الحياة كما يحياها الناس في كل يوم .

في عام ١٩٠٨ صدر الجبران في نيويورك كتاب «الارواح المتمردة» .
وقد نشرته ، كما نشرت سالفه ، جريدة « المسافر » لصاحبها امين
الغريب ، وفي صدره المقدمة التالية :

« الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب اسراره
في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفني ارفع هذا الكتاب . »
بين « عرائس المروج » وبين « الارواح المتمردة » صفحة جيدة
قصيرة من حيث الزمان . ولكن بينهما ، وإن تشابهت المواضيع
والمرامي ، بوناً شاسعاً من حيث الملاحظة والاداء . فالديباجة اكثر
اشراقاً تلتمع في ثناياها جواهر من التشايب والاستعارات المبكرة ،
واللغة امن سبكاً وارحب صدرآ ، والحجة اقوى جبكاً وابعد اثرآ ،
والفكر اصفى ينبوعاً وأسرع جريانآ ، والجرس النطق وقماً واشهى
لحناً . لقد كان جبران الشاعر وجبران الرسّام وجبران المفكر في
سباق مع الزمان .

وكتاب «الارواح المتوردة» كما يدلّ عنوانه - محدث عن
ارواح تمردت على التقاليد والشرائع القاسية التي تحدت من حرية الفكر
والقلب والتي تسمح لحفنة من الآدميين ان تتحكم في ارزاق الناس
وعواطفهم واعنائهم باسم القانون وباسم الدين . وجبران يفتح الكتاب
بحكاية «السيدة وردة» ، فيصورها امرأة بعيدة الفكر ، صادقة
القلب ، جميلة الوجه ، نبيلة الروح ، وقد شاء لها اهلها يوم كانت لا
تفقه بعد معنى الزواج ان تكون زوجاً لرجل وجيه غني يفوقها سناً
بكثير . فصا لبثت ان كرهته اذ تفتّح الحب في قلبها عندما التقى
الشاب الذي اثار كوامن نفسها مثلاً اثار كوامن نفسه . فبهزت
زوجها والتحت بحبيبها غير مبالية بلواذع النقد ، وبالقطيعة الاجتماعية ،
وبشمانة الناس الذين «لا يمكنهم ان يدركوا كنه أوجاع المرأة
عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بإرادة السماء ، ورجل تلنصق به
بشرية الأرض .» وهي راضية بأن تكون منقبة من الهيئة الاجتماعية
«لأن البشر لا ينفون إلا» كمن تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور .
قد تصلح حكاية «السيدة وردة» لأن تكون نواة قوية لأطروحة
في مظالم التقاليد الزوجية . أمّا ان ندموها قصة ، وأما ان نفتش
فيها عن باب الخلاص من تلك المظالم ، فمن قبيل تحميل المفردات فوق
ما تستطيع حمله . فالقصة من اولها الى آخرها شكوى امرأة مظلومة .
ولكنها شكوى بليغة ومؤثرة بما أودعها غنى جبران رحاسته واندفاعه
من جمال وقوة واخلاص .

كذلك قل في «صراخ القبور» فهي حكاية ثلاثة حكم عليهم

الامير بالقتل من غير ان يسألهم سؤالاً ومن غير ان يسمع شهادة شاهد في قضايهم . اولهم شاب اتهم بقتل ضابط . ولكنه قتل دفاعاً عن عرضه وشرفه . وثانيهم فتاة اتهمها زوجها بالخيانة . ولكنها في الواقع ما خانته ، بل لم تكن تحبه لانها ارتبطت به قسر اراذلها . وكانت تحب سواه . وقد فوجئت في خطوة مع حبيبها فاثبتت بالخيانة وحكم عليها بالرجم . وثالثهم شيخ اتهموه بسرقة بعض الاواني الذهبية من كنيسة الدير . ولكنه في الواقع ما سرق غير زنبيل من الدقيق لانه كان يتخوّر واولاده جورعاً من بعد ان طرده الدير من خدمته . إلا ان جيرانه لما رتب الحوادث والاشخاص ذلك الترتيب القلق ليحاري الواقع بل ليخلق لقلبه جواً يستطيع ان يسرح فيه على هواه ، فيصف ما طاب له الوصف وينتد ما لاق له التنديد . كأن يقول ، مثلاً :

« الشريعة . وما هي الشريعة ؟ فمن رآها تارة مع نور الشمس من اعماق السماء ؟ واي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي اي جيل من الاجيال سار الملائكة بين الناس قائلين : احرموا الصغفاء نور الحياة واقنوا الساقطين بحمد السيف ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد ؟ » ومعنى ذلك ان على الناس ان لا يتقيدوا بشرع غير شرع الغريزة .

وفي « مضجع العروس » التي يقول المؤلف انها « حادثة جرت في شمالي لبنان » يعود جبران الى عين الوتر الذي نقر عليه في جميع حكاياته السابقة : وتر الزواج الكرهى وجور الحكم والرهبان .

فهنالك فتاة وفى يتعشق واحدهما الآخر . ولكن الفتاة 'توف' الى رجل لا تربطها به اقل عاطفة وذلك من بعد ان وشى لها الوشاة ان حبيبها هام بغيرها . وفى ليلة زفافها ، والناس فى هرج ومرج ، تبصر حبيبها بين الجماهير فتسل اليه من يدعوه لمقابلتها خلسة فى حديقة البيت . ويجتمع الحبيبان فيعلن الفتي ، ضئاً بكرامة حبيبته وسعته ، انه مال عنها الى سواها . ولكنها لا تصدقه . واذا بصراً على قوله تستلّ خنجراً وتطعنه . وعندئذ ، وهو بين يدي الموت ، يئوح لها من جديد بحبه ويلفظ الحجاب . فتدعو الناس بأعلى صوته الى « عرسها الحقيقي » . وفوق جثة العريس تلقي خطبة رائعة فى جمال الحب وقساوة التقاليد التي تحاول حصره وخنقه . فتقول للناس : « انتم لا تفهمون كلامي لأن اللغة لا تعي اغاني الكواكب . » ثم مخاطب الرجل الذي 'زوّت' اليه برغم انها فتقول له :

« وانت ايها الرجل القبي الذي استخدم الحيلة والمال والحباثة ليصير في له زوجة - انت رمز هذه الأمة النعبسة التي تبحث عن النور فى الظلمة وتترقب خروج الماء من الصخرة وظهور الورد من القطرب . »

ثم هي تعمد الحنجر فى صدرها ولا تنقطع عن الكلام حتى ينقطع قلبها عن النبض . وتنتهي القصة بحيلة عنيفة على الكاهن ، الذي رفض الصلاة على المنتحرين مهدداً باللعنة كل من يحسر على لمسها . ولكن فتاة « مشردة » هبت للكاهن ثعثة وتحداه : « انا ابقى ههنا ايها الكافر الأعمى ، وانا احرسهما حتى يجيء الفجر ، وانا احفر لها قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية . »

اما « خليل الكافر » فيكاد يكون « بروفًا » ثانية عن « يوحنا
المجنون » مع بعض التبديل في الظروف والاسماء والاشخاص .
فهو كذلك في خصام مسج الرهابين . وهو يلقي محاضرة طويلة في
مظالم الحكام والاديار تليق بأقوى الثوار شكية ، واكثرهم حرارة ،
وأشدّهم حماسة . وابن يلقيها ؟ بين يدي الحاكم الظالم المدعو للحكم
عليه وامام الكاهن الذي جاء يشكوه الى الحاكم ! وهو يختم محاضرته
المؤثرة بتناجاة شعرية الى الحرية :

« من منبع النبل الى مصب الفرات . . . من اطراف الجزيرة
الى جبهة لبنان . . . ومن شاطئ الخليج الى أذيال الصحراء ترتفع
نحرك الاعين مغمورة بنوبان الأفئدة . فالتفتي ايها الحرية وانظرينا . . .
اسمعينا ايها الحرية . ارحمينا يا ابنة اثينا . انقذينا يا أخت رومة .
خلصينا يا رفيقة موسى . اسعفينا يا حبيبة اشعيا . علمينا يا عروسة
يوحنا . قومي قلوبنا لنحبها او شدّدي سواعد اعدائنا علينا فننفي
ونقرض ونوتاح . . . » الخ .

احبّ جبران موطنه الصغير حباً يقارب الغيام . ففي جبال لبنان
التي لا نظير لها بين الجبال تفتحت عبقريته . ومن ألوان أغساقها الخالصة
واسعارها الساحرة استمدت ألوان المهام . فلا عجب ان يتغنى جبران
اول ما يتغنى بفتاق لبنان ، وان يحسّ اوجاعه في كل نبضة من
نبضات قلبه الحساس ، وان ينتفض وجدانه السليم انتفاضة الألم الصبي
لكل مشهد من مشاهد الظلم والرياء في هذه البقعة التي احبها

الى اقصى حدود المحبة وكان يودّها طاهرة من كل شيء الا من
الكرامة والعدل والجمال والمحبة .

ولذلك كانت كلّ بواكيره من وحي لبنان . فمن «الموسيقى» الى
« غرائس المروج » الى « الارواح المتمرّدة » الى « الاجنحة المتكسّرة »
يضي جبران يعرض عليك صوراً لبنانية ، وجوهاً لبنانية ، واصواتاً
لبنانية . ثم ينصرف عن موطنه الاصفر الى موطنه الاكبر - الى
العالم - ولكنه يعود بك بين الحين والحين الى لبنان . فتسمعه يصرخ
بعد اغوام «لكم لبنانكم ولي لبناني» او يخاطبك بلسان يوسف الفخري
في «العاصفة» او يناجي اخاه الاكبر ومعلمه الاعظم يسوع الناصري
بصوت « شاعر من لبنان » .

في « الاجنحة المتكسّرة » التي صدرت في نيويورك من بعد
« الارواح المتمرّدة » بأربع سنوات يروي جبران رواية حبّه الأول
يوم كان ما يزال طالباً في بيروت ، ويرويها بأسلوب شعري ، وجدائي ،
مشبع بروح التقديس للحب وكل ما يبعثه في النفس من غبطة مساوية
وآلام لا نطق . وجبران اذا ما تغنى بأمال القلب البشري وآلامه
اسمعتك من الاطمان اشجاءها واراك من الالوان لهاها . فكيف به
يتغنّى بهذه الاول ويجمال الفتاة التي ايقظته في قلبه ؟

لقد حاول جبران في « الاجنحة المتكسّرة » ان يكتب اكثر من
قصة - حاول ان يكتب « رواية » ، الا انه ما استطاع ان يخرج
في محاولته هذه عن نطاق محاولاته السابقة . فهنا كذلك قلبان متحابّان
تحول دون اتحادهما التقاليد الاجتماعية وسلطة رجل من رجال الدين

ولكن في ظروف تترك القارىء في حيرة لا في نقصة على التقاليد
ورجال الدين . فقد كان في مستطاع الحبيبين بقليل من عناء المحبين
وايمانهم بقدسية الحب ان يتغلبا على العقبات النافهة التي قامت في
سبيل اتحادهما . ولكنهما آثرا الرضوخ « للأمر الواقع » على العناد ،
وآثرا الشكوى والتفجع والنواح على الوقوف بجانب حقهما في
الحياة .

سلمى كرامه فتاة في مستهل الشباب « وليس بين النساء من يائثها
رفعة وجمالاً » . وهي وحيدة والدها اليتيم الذي يحبسها حتى العبادة
والذي تفرّد بأخلاقه بين الرجال اذ « جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة
مؤثراً » . وهو صديق قديم لوالد جبران ، وحقاقتة للوالد جلبت الولد
الى بيته حيث عرف سلمى فتتمكن الحب بين قلبه وقلبها من الملاحظة
الأولى . وباح كل من الحبيبين بوجوده لرفيقه . الا ان المطران طلب
سلمى لابن اخيه . فما كان من الوالد الا ان اجاب بالاجاب من غير
ان يستشير ابنته بكلمة . ولا كان من الابنة الا ان اجابت والدها
بـ « نعم » من غير ان تأخذ رأي حبيبها في الأمر .

وكان زواج ، وكان شقاء ، وكانت مأساة ملؤها التفجع والتوجع
وتبادل الشكوى الشمرية والفلسفية بين الحبيبين اللذين راحا يحتملان
خلسة في هيكل مهجور لعشوت . ثم قضى الوالد المستسلم استسلاماً
اعنى لمشيئة المطران . والعجيب انه « وهو على فراش الموت ، فما
نورّع عن ان يوصي ابنته :

« لا تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عن

ذئبي ان كنت خائفاً ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت باراً . »
وخشيت سلمى على مجيبيها من ان يدري الناس بما بينها وبينه
فيلقوه بالسنتهم . ولذلك اعتزمت ان تصحى « بالمحبة المحدودة »
في سبيل « المحبة غير المحدودة » فتتلع عن زياراتها السرية للبيكل
المهجور .

وحصلت سلمى بعهد عقم ووضعت غلاماً عند الفجر ما لبث ان
قضى نحيبه عند شروق الشمس وما لبث احد ان التفتت به .

ان في هذه القصة - مثلما في كل قصص جبران - شحوباً مرده
الى المتيان الحديث فيها على الحركة ، والخيال على الواقع . وهذا
الشحوب هو في آن معاً مصدر الضعف والقوة فيها . ففي الحديث
يرى من الفن والافسفة نفسيك ما فيه من تصنع ويعوض عن قلّة
الحركة الى حد بعيد . وفي الخيال نواتي عالية من الجمال تكفر
عن استناره بالواقع . ومن ثم فجبران ما دان يوماً بقوة الواقع
وحقيقته . ودان كل حياته بحقيقة الخيال وسلطانه .

من بعد « الاجنحة المكسرة » هجر جبران القصة فما عاد اليها الا
نادراً . وانصرف الى المقطوعة من نوع « الشعر المنشور » والى المثل
والموعظة . وعنده حاشق فيها بعيداً . فقد كانت الأقرب الى ذوقه
ومزاجه وفطرته الفنتية من كل ما عداها من ضروب الأدب .

بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ اخذ جبران ينشر في جريدة « المهاجر »
مقالات من الشعر المنشور تحت عنوان « دمنة وابنة دمنة » وهذه

المقالات هي التي جمعت عام ١٩١٤ ونشرت في كتاب بعين العنوان .
وكان الفضل في نشرها لنسيب عريضة .

يضم الكتاب بين دفتيه نحواً من ٦٠ مقطوعة ينثر فيها جبران
تنقاً فيضاة من قلبه ، وشرارات وهاجة من فكره ، والرائد متوحجة
من خياله . وينثرها بقلم قاعم ، صادق ، سخي يحاول في الكثير من
نبراته محاكاة مزاجير دأود ونشيد سلجان وسفر ايوب ومراثي ارميا
وتحييلات اشعيا وعظائم الناصري . ولا عجب فقد كان للتوراة في
نصيبها العربي والانكليزي ابعد الاثر على الاسلوب الذي اختاره
جبران لنفسه فتفرّد به بين كتاب العرب وكتاب الانكليز ، ولم
يسبقه اليه عند الفريجة غير نيتشه . وانت اذ تطالع « دمنة وابتناسمة »
تكاد تطالع فيه تاريخ قلب جبران وفكره وتاريخ حياته حتى عام
١٩٠٨ . فالهواجس والعواطف التي اثارها فيه سنوات صرفها في
بيروت ، وسنوات في باريس زار في خلالها اهم العواصم الاروروبية ؛
ومطالعاته الدائمة في الآداب الغربية والشرقية ؛ والزيارات التي نزلت به
اذ اختطف السلّ اخاه من امّه ، ثم شقيقته الصغرى من امّه وابيه ،
ثم امّه ؛ واذا احترقت رسومه باحترق البنابة التي كانت معروضة
فيها ، - كل ذلك وما يثيره من تأملات في الحياة وشؤونها تبصر له
آثارا بارزة في الكتاب . وبرزها واجلها على الاطلاق ما جاء في
مقاله الشجيّ البديع « يوم مولدي » ، فهو القصة في الكتاب وما عداه
تلال .

ومن ثم فيجبران اذ يقدم اليك في كتابه هذا اكواباً طافحة

بهرارة الكتابة والوحشة وأخرى متنوعة بجمود الحب والأمل يتقدم
 اليك كذلك بذوراً من ذلك الايمان المبصر الذي ما يرح ينير سبيله
 ويوجه خطاه الى ان بلغ به واحة الاستقرار الروحي - تلك الواحة
 التي كان ينشدها كل حياته والتي ادركها ووصف لك معالمها ومفاتيحها
 في كتابه « النبي » ، ففي الكثير من مقطوعات « دمنة » وابتسامه ،
 تلتصق امامك أقباس من الحقيقة التي صاغ عنها جبران فيما بعد مواعظ
 نبيه . وهي حقيقة المحبة التي تشد الاكوان بعضها الى بعض ، وتعمل
 للحياة معنى شاملاً يتسامى فوق كل المقادير والمقاييس البشرية ، وتقيم
 للانسان وزناً يضيق به الزمان والمكان . فما أكثر ما يحيي جبران
 على ذكر المحبة . وما أكثر ما يمجّد الانسان . وان هو تبرّم بما في
 حياة الناس من نخاسة وقبحا وجبل وظلم فما كان ذلك يعنيه عن
 حكمة الحياة الشاملة وعدلها وعن الوهية الانسان . فهو يقول في
 « القوة العياء » وهي مقطوعة اوحاها اليه زلزال سان فرانسيسكو :
 « إن من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبندع من كواكب
 ونوارل نراها محاسن نتائج لا نراها . » ثم يختم المقطوعة بهذه الكلمات
 البعيدة الغور والقرار :

« على انني وجدت بين هذه التشكلات المخيفة والزوايا المائلة الوهية
 الانسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الارض وغضب العناصر ،
 ومثل عمود نور منسوبة بين خرائب بابل ونيانوى وتدمر وعباي وسان
 فرانسيسكو مثل انشودة الحلود قائلة : لتأخذ الأرض ما لها ، فلا نهاية لي . »

وننتقل بك الى قصيدة « المواكب » التي اصدرها جبران عام ١٩١٩ على نفقته الخاصة في حلة انيقة وزينتها بطائفة من الرسوم البديعة . فهي تمثل فاحية جديدة من بيان جبران المتعدد النواحي ، وهي المرة الأولى والاخيرة التي اختار جبران فيها ان يتقيد بالوزن والقافية مخلق عمل فني له شأنه . فقد سبق له ان نظم القليل من الشعر الموزون في حالات عاطفية طارئة . أمّا في هذه القصيدة فيلجأ جبران الى فكره قبل قلبه وينبوي بسوق اليك خواطر فلسفية في أهم شؤون الحياة البشرية كالخير والشر والدين والحق والعدل وغيرها .

في القصيدة تياران يجريان في اتجاهين متعاكسين . وليس من صلة بينهما الا التي يقيسها خيال الشاعر في وجدان القارئ . والقصيدة في تيارها الأول من البحر البسيط ، وفي الثاني من مجزوء الرمل . والتياران يبدوان كما لو كانا حواراً بين شخصين . ولكنهما ليسا كذلك . بل جل ما في الأمر أن الأول يمثل الحياة بظاهرها القبيح وباطنها الجليل . والثاني يمثلها وحده روحية لا باطن لها ولا ظاهر . الأول يتبرّم بما في الحياة البشرية من ريساء وضعف وذلّ وفلق ونخال دائم ما بين الخير والشر . والثاني يجتهد الحياة في « الغاب » - حياة الفطرة والسليقة - حيث لا خير ولا شر بل استسلام كامل الى المشيئة العاقلة المبدّبة التي تتسامى فوق الشر والخير . ولعل ذلك ما حدا بكاتب المقدمة - نسيب عريضة - ان يتخيّل الصوت الأول صوت شيخ والثاني صوت شاب . أمّا في الواقع فالصوتان ليسا سوى صدى النزاع الداخلي في نفس جبران ما بين ايمانه بفطرة الانسان

الالهية وبين ما كان يبصره في حياة الناس من بشاعة ووجع وتشويش .
 يفتح الصوت الأول القصيدة بأبيات في الخير والشر ثم ينتقل بك الى
 الحياة فالدين فالعدل فالخلق فالعلم فالحرية فاللطف فالظرف فالحب
 فالجنون فالعادة فالروح والجسد فالموت . وهذه كلها يحول فيها
 جولات طويلة او قصيرة تتشابه في رذانة النبوة وفي السعي وراء
 الجديد والجميل في المعنى ، وتتفاوت في حظوظها من الوضوح والغوص
 ومن انسجام المهامي والمباني . ففي الكثير منها تحس شيئاً من الأسف
 على فكرة واسعة يفرغها الشاعر في قالب ضيق ، وعلى صورة مبدعة
 تشوّهها قافية دميمة . وتحس فوق ذلك ان جبران يجهل نفسه كثيراً
 ليرضى اللغة والوزن والقافية ويحاول ان يخفي اجهاده . ولكن
 المباء لا يلبث ان يبدو عليه . الا انه ، حينما حالته التوفيق ، جاءه
 بالفائس وبالخمرة البكر . مثال ذلك قوله في الحياة :

« فالأرض خمارة والدهر صاحبها
 وليس يرضى بها غير الأولى سكروا »

وقوله في الحق :

« والحق للعزم والأرواح ان قويت
 سادت وان ضعفت حلت بها الفيسر
 . . . وفي الزراير جبن وهي طائفة
 وفي البزاة شموخ وهي تمخضر »

وقوله في الحرية :

« والحرّ في الأرض يبني من منازعه
سجناً له وهو لا يدري فيؤتسر »

وقوله في الحب :

« والحبُّ إن قادت الأجسام مركبه
إلى فراش من اللذات يتعصر
والحبُّ في الروح لا في الجُسم نعرفه
كالخمر للوحي لا للسكر تنعصر »

وقوله في السعادة :

« وما السعادة في الدنيا سوى شبح
يُرجى فإن صار جسماً ملّه البشر »

أمّا الصوت الثاني فتسمعه في نهاية كل جولة من جولات الصوت
الأوّل . فإن تبرّم الأوّل بحزن أو بهيودية أو بجهل ، وإن تحدث
عن الحق والعدل والسمادة والموت والحياة وما إليها ، انبرى الثاني
يقول ان « ليس في الغابات » شيء من ذلك . بل كل ما فيها ألفه
وحفاء وهناء لا يشوبها شيء من التناقض القائم في أفكار الناس
وقلوبهم من حيث علاقتهم بعضهم ببعض وبالكائنات من حولهم .
وهو جدّ ولوع بالنفخ في الناي الذي يتخذ من انغامه رمزاً للخلود .
لذلك لا ينفكّ يطلبه في آخر كل نشيد من أناشيده . فيقول — مثلاً —
في نشيده عن الخمر والسكر :

« ليس في الغابات سكر من مدام أو خيال . . .
اعطني الناي وغنَّ فالفنا خير الشراب
وانين الناي يبقى بعد ان تغنى الخضاب »

وينتهي الصوت الشافي بنشيد جميل يخاطب فيه الصوت الأول
فيقول في جملة ما يقول :

« هل تحممتَ ببطور وتلحفت بنسور
وشربت الفجر خمراً في كؤوس من اثير ؟
... هل فرشت العشب ليلاً وتلحفت الفضا
زاهداً في ما سياتي ناسياً ما قد مضى
وسكون الليل بجر موجه في مسمعك
وبصدر الليل قلب خافق في مشجعك ؟
اعطني الناي وغنَّ وانس داءً ودواء
انما الناس سطور كتبت لكن بقاء »

وإذْنُ هو الزهد في الدنيا — زهد العارف القادر لا زهد الجاهل
الضعيف — كان يتوق البه جبران فما يستطيع بلوغه . ولذلك عاد
من تطوافه البعيد في الحياة وشؤونها بما يشبه الحيرة واليأس . فهو
ينتهي بالقصيدة الى القرار التالي :

« العيش في الغاب والأيام لو نُظمت
في قبضي لغدت في الغاب تنتثر

لكن هو الدهر في نفسي له أرب
فكلما رُمت غائباً راح يعتذر
وللتقدير سبل لا تغيرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصرُوا

وانك لتعجب لجبران الذي كان يؤكّد الانسان ويقول ان لا نهاية
له ، كما رأيت في مؤلفاته السابقة وبخاصة في « دمنة وابتسامة » ،
كيف يجري قلبه في يده فيخطّ البيت الذي مرّ بك :

« اغا الناس سطور كتبت لكن بقاء »

وكيف ينتهي بك الى ذلك القرار من التشاؤم والاستسلام
للأقدار وهو النافع في بوق التمرد والعصيان ؟

ولكن أقوى الناس شكية ، وابعدهم هدفاً ، وأسأهم فكراً ،
واصلبهم ايماناً ، تصدمهم حالات ماديّة وروحية صدمات غنيّة بيد لها
كيانهم إلاّ انه لا ينهار . وجبران وان كتم عن الناس شكواه ،
كان يلاقي الكثير من الضحك الماديّ والمعنويّ في عالم لاه عن الباب
بالشور ، وعن النور بالظلم . واتفق ان اهتدى في تلك الاثناء الى
فرديريك نيتشه ، سيد المتمردين والمتشككين وحامل لواء الثورة على
القيّم الرثّة التي يدنّ بها الناس فوق كل دين . فانهجرف بنيار نيتشه وما
برحت معتقداته السابقة تشدّه الى الوراء . فكانت « المواقف »
نتيجة لتلك الحالة القلقة التي احسّها جبران ما بين قوتين تتجاذبان :
قوة الايمان بحكمة الحياة وعدلها وجمالها في كل ما تأتبه ، وقوة

الثقمة التي أثارها فيه نبشته من جديد على ضعف الناس وخنوعهم
وتواكلهم وكل ما في حياتهم الباطنية والخارجية من قذارة وبشاعة
وانتصر نبشته في النهاية . ولكن الى حين .

ثار جبران في يده حياته الأدبية على الظلم الذي تجسّد له اول ما
تجسّد في جور التقاليد والحكام وغطرسة رجال الدين في لبنان .
وانتهت ثورته تلك برواية « الاجنحة المتكسرة » . وعقبها فترة
قصيرة من التصوف والاستسلام ما لبث ان أفسدها عليه نبشته بثورة
الجامعة الماصرة . فقد كان كتاب « هكذا تكلم زرادشت » في نظر
جبران « من اعظم ما عرفته كل العصور » .

وثار جبران مع نبشته لا على الحكام والرهبان وحدهم ، بل على
جميع الناس وتقاليدهم ومقاييسهم وموازينهم ، وعلى الاسس الواسية
التي اقاموا عليها صرح حياتهم . فلا اديانهم ولا سياساتهم ولا فلسفاتهم
حررتهم من الخوف والذل والعبودية والمسكنة . بل انبأ على العكس
من ذلك ، مكنت في نفوسهم مخاوف وروايل لا حصر لها ، اذ قضت
على الارادة الخلاقة فيهم التي هي وحدها الكفيلة بأن تبلغهم
الانسان الأمثل ، او الانسان المتفوق ، او السويرومان .

وانت ترى آثار هذه الثورة الجديدة ، وقد قاربت نهايتها ، في
يقوله الصوت الاول في « المواقب » . ولكنك تسمعها صاخوة
صاخبة ، غنيمة في مقالات كتبها جبران قبل « المواقب » ثم جيم
وغيرها من المقالات واصدرها في كتاب اسماه « المواقف » ونشره

إدارة « الحلال » في مصر عام ١٩٢٠ . وبرز تلك النقالات واشدها
عنفاً « حفار القبور » تساندها ، ولا تجاريا في السف ، مقالات اخرى
أعشها : « العبودية » و « يا بني آشي » و « نحن وانتم » و « أبناء
الآلهة واحفاد القروذ » و « الأضراس المسوسة » و « العاصفة » .

في « حفار القبور » لا يجد جبران له شغلا أحب الى قلبه من
حفر القبور وإحياء الأموات . ومن هم الأموات الذين يلجدهم ؟ هم
جميع الناس الذين « يرتعون امام عاصفة الحياة فتظنهم احياء وهم
أموات منذ الولادة . ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين
فوق الترى ورائحة النتن تنبعث منهم » . ومن الذي علم جبران
حفر القبور ودفن الموتى ؟ هو « الاله المجنون » المولود في كل مكان
وزمان الذي اذ يسأله المؤلف عن شغله يجيبه : « في الصباح اجدف
على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ، وفي المساء اسخر بالطبيعة ،
وفي الليل اركع امام نفسي وأعبدها . » - حقا انه لاله غريب جدا
ذلك الذي التقاه جبران « في وادي ظل الحياة المرفوف بالعظام
والجراح » . وانها لمبة شاققة جدا تلك التي تعللها جبران منه !

وانك لتعجب لجبران الذي ما كان يحل احدا من معلمي
الانسانية وانبيائها اجلاله ليسوع المسيح كيف استطاع ان يوافق ،
ولو الى حين ، رجلا مثل نيتشه حاول ان ينال من مجد المسيح وسوء
رسالته بتصويره اياه رجلا ضعيفا متمسكنا راح يروء على الضعفاء
والمساكين فيرفع ضعفهم ومسكنتهم الى مرتبة الفضيلة ويلوح لهم
بسعاده دعاها « الملكوت السامري » ويجعل من الضعف والمسكنة

مفتاحاً لتلك السعادة اذ يقول : « طوبى للمساكين بالروح فإنهم هم ملكوت السموات . » ولكن جبران الذي جرى نبشته في ثقته على الناس وضعفهم واستكانتهم الى الذل والعبودية لم يجارده في نظره الى يسوع . بل وفق ما بين اعجابه بنبشته وبين محبته ليسوع بأن جعل من يسوع ذلك السوبرمان الذي كان يبتشر به نبشته . فهو يقول في « يسوع المصلوب » :

« ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً . ولم يت متوجعاً . بل عاش ثائراً ، وُصِّل متبرداً ، ومات جباراً . »

وهذه النغمة عينها يرددها فيما بعد في كتابه الانكليزي « يسوع ابن الانسان » .

في « العواصف » مقالات تعود بك الى جبران « دمة وابتسامة » - الى ذلك الشاعر الوجداني الذي ما كان يلذّه شيء مثلاً يلذّه ان يشتر قلبه على الورق بكل ما فيه من حب وكآبة ووحشة وغوية وآلم وشوق وحزن . مثال ذلك مقطوعته البديعة في « الشاعر » حيث يقول :

« انا غريب في هذا العالم .

« انا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني . »

وكذلك مقاله الجميل « بين ليل وصباح » الذي مطلع « اسكت يا قلبي فالقضاء لا يسمعك » والذي يختتمه بقوله :

« قم يا قلبي وارفع صوتك متوتساً . فمن لا يشارك الصبح
بأغانيه كان من أبناء الظلام . »

وكذلك مقاله المؤثر « مات اهلي » الذي كتبه يوم كانت المجاعة
تحصد الناس حصداً في لبنان ابّان الحرب العالمية الأولى ، والذي يبلغ
فيه منتهى الرقة والعذوبة والحنان ، اذ يتمنى لو كان سنبلة من القمح
نابتة في تربة لبنان يقات بها طفل جائع ، او ثمرة يانعة في بساتين
لبنان تحنيها امرأة جائعة ، او طائراً في فضاء لبنان يصطاده صياد جائع .

« مات اهلي على الصليب .
« . . . ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .
« ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .
« ماتوا لأنهم كانوا مسلمين » الخ .

امّا « العاصفة » التي يعود فيها جبران الى التبرم بالناس وتقاليدهم ،
والى تمجيد التمرد والاشادة بحمالة الاعتزال ، ففي آخرها ما يدلّك
على ان جبران النائر قد اخذ يشعر بأن الثورة وحدها قد تنتهي بأن
تخلّ ذاتها بذاتها . لاسيما اذا كان الغرض منها قلب النظام الذي منه
يبتدىء ، واليه ينتهي كل نظام . فذلك فوق طاقة الناس . ولذلك
يعترف جبران أمام نفسه : « قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً .
ولكن الناموس الأبدي قد جعل الأعراض سلباً تنتهي درجاته
بالجوهر المطلق . » وإذن على من او على م تثور ما دام في الكون
« ناموس أبدي » وما دام كل ما في الكون — وانت منه — خاضعاً
لذلك النظام ؟

كانت « العواصف » آخر كتاب عربي أصدره جبران . أمّا « البدائع والطرائف » التي نشرتها « مكتبة العرب » في مصر عام ١٩٢٣ فلم تكن غير مجموعة أخبارها صاحب المطبعة من كتابات جبران ولم يكن له رأي في اختيارها أو في تسميتها . وجلّها مأخوذ من « دمنة وابتسامة » ومن « العواصف » وغيرهما من مؤلفات جبران العربية والانكليزية مع القليل من المقالات التي لم يسبق نشرها في كتاب . وأهمّها « وعظمتي نفسي » و « لكم لبنانكم ولي لبنانى » و « مستقبل اللغة العربية » و « إرم ذات العماد » .

ففي « وعظمتي نفسي » يعود جبران عن توريته الزرادشتية فلا يجد نفسه « أرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة » بل يدرك أنه وجميع الناس من عنصر واحد . فتتوهم ذنوبه . وصلاحهم صلاحه . وضعفهم ضعفه . وقوّته قوّتهم . وأنه وإن حمل النور ، ليس بالنور ، وإن كان « عوداً مشدود الأوتار » فما هو الذي يضرب على الأوتار بل غيره .

وفي « إرم ذات العماد » يحاول جبران أن يفرغ في قالب قصصي خلاصة ما توخّل إليه حتى ذلك الحين من التأمل في الإنسان ومصدره وحياته ومآله ، وفي الزمان والمكان ، وفي الروح والمادة ، وفي الموت والحياة بعد الموت . فيخلص إلى نتيجة واحدة هي أن « كل ما في الوجود كائن في باطنك ، وكل ما في باطنك موجود في الوجود . وليس هناك حدّ فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها ، أو بين أعلاها وأخفضها ، أو بين أصغرها وأعظمها . » أمّا معرفة هذه الأمور كلها

فلا تنأى إلا عن طريق التشوق إليها . والتشوق ميسور للجميع .
 ففي مستطاع « كل إنسان أن يتشوق ثم يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع
 الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته . ومن ير
 ذاته ير جوهر الحياة المجرد . فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد » -
 وذلك ما قاله سقراط « اعرف نفسك » وما قاله المتصوفة المسلمون
 وغير المسلمين من بعده ، وما قالته « الفيدا » قبل سقراط والمتصوفين ،
 وما ينتهي إليه في الغالب كل الذين يأبى عليهم خيالهم وفكرهم أن
 يقبلوا الأشياء على ظواهرها كما تناولها الحواس وأن ينكروا القدرة
 التي تنبطن عنها الظواهر ، والتي تبدل الظواهر ولا تبدلها الظواهر .
 وهي القوة الكائنة الشاملة السرمدية . أجل . لقد قبل ما يشبه ذلك
 من زمان . ولكن قل من قاله بأسلوب شعري مشع كأسلوب
 جبران .

عندما قلت أن « العواصف » كان آخر كتاب أصدره جبران ما
 عني أنه انقطع من بعده انقطاعاً تاماً عن الكتابة بالعربية . وعني
 أنه من بعد أن شق طريقه إلى العالم الإنكليزي انصرف عن العالم
 العربي إلى حد بعيد . فما أصدر كتاباً عربياً جديداً . ولكنه ظل
 يكتب مقالات متقطعة أهمها ما كان ينشره في الأعداد الممتازة التي
 كانت تصدرها جريدة « السائح » في مطلع كل عام . وكان آخر ما
 كتبه بالعربية مقالاً أعدته للسائح الممتاز في مطلع سنة ١٩٣١ ، وهو
 حوار يدور بين ملك وراع فيخرج الراعي منه ظافراً . ولكن
 ذلك العدد لم يصدر ، ولم يكتب لجبران أن يقرأ مقاله مطبوعاً .

فقد أدركته المنية مساء العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ .

هكذا جاء مثال « ملك البلاد وراعي الغنم » خاتمة صامئة لثورة
عظيمة ، جاحجة ، مباركة هزت الأدب العربي هزاً ، وقد حمل
لواءها قلبٌ محبٌ فسيح ، وفكر انساني جبار ، وخيال نقّاذ وثّاب ،
ودروح مرقّع أجمل التوقيع خير ما في الكيان البشري من أشواق
حرارة وحنين أبدي الى الانعتاق من القيود والحدود للحظوة بحريّة
المعرفة التي لا توصف ولا تُحدّ .

مثال عظم

بسكنتا - لبنان

في ١٠ أيلول سنة ١٩٤٩

الموسيقى



جلست بقرب من احبتها نفسي اسمع حديثها . أصغيت ولم أنبس
بنت شفة ، فشعرت ان في صوتها قوة اعتز لها قلبي اهتزازات
كهربائية فصلت ذاتي عن ذاتي ، فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حد
له ولا مدى ، ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيقاً .

سحر عجيب مازج صوت حبيتي وفعل بمشاعري ما فعل وانا لاه
عن كلامها بما اغناني عن الكلام .

هي الموسيقى ايها الناس ، سمعتها اذ تنهدت حبيتي بُعيد بعض
الكلمات وابتسمت في بعضها . سمعتها لما حكمت تارة بالفاظ متقطعة
وأونة يجمل متواصلة واخرى بكلمات أبت نعفها بين شفيتها .

تأثيرات قلب حبيتي ، رأيتها بعين سمعي فأشغلني عن جوهر
حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هي صوت النفس .

بلى ، فالموسيقى هي لغة النفوس ، والالان نسيات لطيفة تهز اوتار
العواطف . هي انامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبه الذاكرة
فتنشر هذه ما طوته اللبالي من حوادث اثرت فيها بماضي عبو .

هي نغمات رقيقة تستحضر ، على صفحات المخيلة ، ذكرى ساعات

الاسى والحزن اذا كانت محزنة ، او ذكرى اويقات الصفاء والأفراح
اذا كانت مفرحة .

هي مجموع اصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتقلأ اضلعك لوعة
وتمثل لك الشقاء كالاشباح .

هي تأليف أنغام مفرحة ، نعيمها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين
اضلعك فرحاً وتباً .

هي رنة وتر تدخل سامعتك بحيلة بتمويجات الاثير ، فقد تخرج
من عينيك دموع محرقة اثرتها لوعة نأي حبيب او آلام كلوم خرقها
ناب الدهر . وربما خرجت من بين شفئك ابتسامة كانت والحق
عنوان السعادة والرخاء .

هي جسم من الحاششة ، له روح من النفس وعقل من القلب .

وجد الانسان فأوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغزة ، ليست
كاللغات ، تحكي ما يكثو القلب للقلب ، فهي حديث القلوب . وهي
كالحب عم تأثيرها الناس ، فتوهم بها البرابرة في الصحراء ، وهزت
اعطاف الملوك في الصروح . مزجتها الشكلى مع نوحها ، فكانت ندباً يفتت
قلب الجماد . وبشها الجنلان مع افراحه ، فكانت انشاداً يطرب مغلوب
الأرزاء ، فقد حاكت الشمس ، اذ أحييت بأشعتها جميع زهور الحقل .

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ، فتظهر
اعماقه . والألحان في قضائي اشباح الذات الحقيقية او خيالات الشاعر
الحية . والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس

عليها رسوم تلك الأشباح وصور تلك الحيات .

النفس زهرة لينة في مهب ريح التقادير ، نسيمات الصباح تهزها
وقطرات الندى تلوي عنقها . كذا تغريدة عصفور تنبّه الانسان من
غفلته ، فيصغي ، ويشعر ، ويمجد معه الحكمة مبدعة نعمة الطائر العذبة
وشعوره الرفيق ، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسال ذاته ،
وما يحفّ به ، عما اسره لحن ذلك الطائر الحقيق فعرك اوتار
عراطفه وأوحى اليه معاني ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل
مستفهماً عبثاً اذا كان العصفور يناجي زهور الحقل ام يحاكي اغصان
الاشجار ام يقلد خرير مجاري المياه ام ينادم الطبيعة بأسرها ، ولكنه
لا يستطيع الى الحصول على الجواب سيلاً .

الانسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ، ولا
الجداول على الحصباء ، ولا الأمواج اذ تأتي الشاطئ ببطء وهدهو .
ولا يفقه ما يحكيه المطر اذ يتساقط منهلاً على اوراق الاشجار ، او
عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم
لزهور الحقل ، ولكنه يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه
الأصوات فهتوّ لها ، تارة بموامل الطرب ، ويتنهد طويلاً بفؤاعل
الأسى والكتابة . اصوات تناجيه بلفظ ضمنية ، وضعتها الحكمة قبل
كيانها ، فتحدثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود
اللسان حائراً ، وربما ناب عن لفظه الدمع والدمع افصح مترجم .
تـ معي ، يا صاح ، الى مسرح الذكرى لتزى مئزلة الموسيقى عند

أهم طوتها الأيام ، وتعاله نتأمل تأثيرها في كل دور من ادوار ابن آدم .

عندها الكلدانيون والمصريون كإله عظيم يُسجد له ويمجد . واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال شاعر فارسي ما معناه : « ان الموسيقى كانت حورية في سماء الآلهة تعشقت آدمياً وهبطت نحوه من العلو فغضب الآلهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحاً شديدة نثرتها في الجحيم وبعثتها في زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قط بل هي حية تقطن آذان البشر . »

وقال حكيم هندي : « ان عذوبة الالحان توطئ آمالي بوجود أبدية جميلة . »

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الهأ مقتدراً ، بنوا له هياكل عظيمة ما برحت تحدثنا بعظمتهم ، ومذابح فضية ، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم . الهأ دعوه إبولون فسلوه وجميع الكمالات تجعله منتصباً ، كالعصن على مجاري المياه ، يحمل القيثارة في يسراه ، ويمينه على الأوتار ، رأسه مرفوع يمثل العظمة ، وعينهاه ناظران الى البعيد كأنه يرى أعماق الأشياء .

وقالوا ان رنات اوتار إبولون صدى صوت الطبيعة . رنات شجرة ينقلها عن تغريد الطيور وخروج المياه وتنبهات النسيم وحفيف اغصان الامشجار .

وجاء في اساطيرهم ان رنات اوتار اورفيوس الموسيقي حررت

قلب الحيوان فاتبعته الضواري ، والنبات ، فهدت نخسوه الأراهر
أعناقها ومالت إليه الأغصان ، والجماد ، فتحرك وتفتت .

وقالوا فقد اورفيوس زوجته فبكاه ورثاها نادياً حتى ملأت نغمة
لوعته البهوية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حشئت قلوب الآلهة ففتحت
له ابواب الأبدية كي يلتقي بحبيبته في عالم الأرواح .

وقالوا قتلت بنات الأحرار اورفيوس ورمين برأسه وقبضارته
الى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأعافي .
وقالوا ان الأمواج التي حملت رأس اورفيوس وقبضارته ما برحت
منذ ذاك الحين تصرخ من أحواشها ندباً مؤثراً وأنغاماً مخزنة ، تملأ
الأنثر فيسمعها الملاحون .

هذا كلام بعد ان قضى عز تلك الأمة ومنفى ، دعونا خرافات
مصدرها الوهم وأحلاماً ابتدعتها التصورات ، غير انه قول دل على
ان تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً فقالوا ما
قالوا عن صحة اعتقاد ، فما خزننا لو دعونا تلك الأقوال بمبالغة شعرية
مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال وهذا في عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت الينسا آثار الاشوريين رسوماً تمثل مواكب الملوك ساورة
وآلات الطرب لنقامها ، وحدتنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها
عنوان المنجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد . أجل . فالسعادة
بدونها تحكي قذاة قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع اصم الأرض ،
سبحت معبوداتها بالاناشيد ومجنتها بالأطان ، وكانت التراتيل -
وهي الآن - فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكم يخرقات يقفوتها

على القوة المعبودة . محركات مقدسة مبدؤها عواطف النفس . صلوات
 يهبها القلب وما اكملته اهتزازات المشاعر . انفاس حرّة ما زللتها
 الالفاظ بل تطرّفت بها انفاس اثارها ندامة الملك داود فملأت اناسيده
 ارض فلسطين وابتدعت اشجانه انعاماً شجية مؤثرة فتبعها انفعالات
 التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ،
 تطلب له مغفرة زلاته ، وكان رنات فيثارته قد اثبتت من قلبه
 المنسحق وسرت مع قطرات دمه الى اصابعه ، فكانت أعمال تلك
 الأصابع عظيمة عند الله والناس . وهو القائل : « هللوا للرب ،
 سبحوا الرب بصوت البوق ، سبحوه بالزامير والقيثارة ، سبحوه
 بالطلل والدفوف ، سبحوه بالأوتار والارغن ، سبحوه بصوت الصنوج ،
 سبحوه بصنوج التهليل وكل نسة فلنسبح الرب . » وجاء في الأسفار
 ان ملائكة من السماء تأتي ، في آخر الدهر ، نافخة الأبواق في جبيع
 افطار العالم فتستفيق من صومها الارواح وتلبس اجسامها وتنتشر امام
 الديان . لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى اذ انزلها منزلة رسول
 من الله الى ارواح البشر ، وما قول الكاتب الا « صورة مشاعره
 وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصره .

وجاء ، في بدء فأساة ابن البشر ، ان التلامذة سبحوا قبيل
 ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم . وكان في الآن أسمع
 نغم تلك التسبيحة صادراً من اعصاف نفوس حزينة رأت ما سيجزى
 برسول السلام فتنافست عن نغمة مؤثرة ثابت عن كلمة الوداع .

تسير الموسيقى ، امام الصاكر ، الى الحرب فتجدد عزيمه حبيبتهم
وتقرهم على الكفاح ، وكالجازبية فجميع شنائهم وتؤلف منهم صفوفاً لا
تفرق . ما سارت الشعراء ، امام الكتائب ، الى ساحات القتال ،
موطن المنيه ، لا ولا الخطباء ، ما رافقتهم الاقلام والكتب ، بل
مشت امامهم الموسيقى كفائد عظيم ، يبت بأجسامهم الواهنة ، قوة
تفوق الوصف ، وحيه تنبه في قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع
والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكل ما في اجسادهم من القوة ،
ووداعا يسيرون بفرح وطرب وينبعون الموت الى ارض العدو
البغوضه . كذا يستخدم ابن آدم اقدس ما في الكون لتعيم شرور
الكون .

الموسيقى رفيقه الراعي في وحدته ، وهو ان جلس على صخرة في
وسط قطيعه نفخ بشبابته اطناً تعرفها نهجه فتزعي الاشباب آمنة .
والشبابه عند الراعي كصديق عزيز لا تفارق وسطة ، ونديم محبوب ،
تستبدل سكينه الأودية الرهيبه برياض مأهولة ، وتقتل بأنغامها الشجيه
وحشها ، وقلأ الهواء أنساً وحلاوة .

الموسيقى تقود اظعان المسافرين وتحفف تأثير التعب وتقصّر مديد
الطرق . فالعيس لا تسير في البداء الا اذا سمعت صوت الطادي .
والغافله لا تقوم بثقل الاحمال الا اذا كانت الاجراس معلقه برقها .
ولا يدع ، فالعقلاء في ايامنا هذه يربشون الضوازي بالالخان ويدجنونها
بأصوات غلبه .

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا
الارزاء والافراح وتساهمنا السراء والضراء . وتقوم كالشاهد في ايام
سمرتنا وكقريب شفق في ايام شقائنا .

يأتي المولود من عالم الغيب الى دنيانا ، فتقابلته القابلة والاقارب
بأغاني الفرح ، متأملين بأناشيد الابتهاج والحبور . يحضونهم ، عندما
يبري النور ، بالبكاء والعيول فيجيبونه بالتهايل والحناف كأنهم يسبقون
بالموسيقى الزمان على افهامه الحكمة الالهية .

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنت بصوتها الموسيقي
المملوء رقة وحسناً فيكف عن البكاء ويرفح لألحان امه المتجسمة من
الشفقة وينام . وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوة تعزز الى الكرى
ليعض اجفان طفلها . وتشارك تلك الألحان السكينة بهدوئها فتزيدهما
حلاوة وتمحو رهبتها وتلأها سحراً من انفاس الأم الحنون حتى ينقلب
الرضيع على الارق وينام وتطير نفسه الى عالم الارواح . ولا ينام
الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون او قرأت ابن الفارض .

ينتهي الرجل شربكة حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج ، متمسكين
وصية كتبها الحكمة منذ البدء على قلوبهما ، فيجتمع الاقارب والحفلات
ويرفحون بالاناشيد والاهازيج ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط
القران عرس المحبة ، فكأنسي بها ، يوم التعريس ، صوت رهيب قاربه
الحلاوة ، صوت يمجّد الله في مخلوقاته ، صوت ينبئه الحياة الناءة
لتسير وتنتشر وتلأ وجه الارض .

وعندما يأتي الموت ، ويمتثل آخر مشهد من رواية الحياة ، نسبح

الموسيقى المعززة ونراها تملأ الجو بأشباح الاسب، في تلك الساعة الموحجة
 اذ تودع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسيح في بحر الابدية ، تاركة
 حيكالها الميولي بين ايدي الملحنين والتدائين ، فيتأوهون بنغمات الحزن
 والأسف ويلحشون تلك المادة الثرى ويشيعونها بأحضان مفادها الضيم
 وأناشيد معناها الكمد واللوعة . نغمات يحيونها ما بقي التراب فوق
 التراب وان بليت يبقى صداها في غلايا الجوارح ما دام القلب يذكر
 من مضى .

جالست من مئزرة الله بهذوبة الصوت وجباه ادراك فلسفة النعيم
 والايقاع فرأيت السامعين حوله مصفين ، صاغرين ، ماسكين انفسهم ،
 محكومين بفواعل السكينة ، شاخصين اليه كالشعراء المستسلمين لقوة
 فعالة ، توحى اليهم اسراراً غريبة ، حتى اذا ما انتهى الملحن من
 انشاده تنهدوا ذلك التنهد الطويل — آه — آه — آه !! صادرة من
 امثدة عيبت فيها الاطمان عواطف مكنونة فلذ لها التأوه . آه
 تلتفها قلوب حرسى انعتتها الذكري . آه كلمة صغيرة لكنها حديث
 طويل . آه !! ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه ، بل
 تنهدا من أعار اذناً لتشيد نسج من مقاطع انفاس متقطعة . انفاس
 حبة مثلت له فصلاً من رواية حياته الماضية او فشت سرّاً اكثته
 اضلعه .

وكم تأملت وجهه سامع حساس فرأيت ملاحه تنقبض تارة

وتنيسط طوراً وتنقلب مع تقلبات النعم . واشتدت بحلقة الى خلقه
واستحكمت باطنه بواسطة ظاهره .

والموسيقى كالشعر والتصوير، تمثل حالات الانسان المختلفة وت رسم
اشباح اطوار القلب وتوضح خيالات اميال النفس وتصور ما يجول
في الحاطر وتصف اجمل مشتهيات الجسد .

النهاوند

(النهاوند) يمثل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة
من راحل عزيز . يمثل شكوى آلام مبرحة بسين ضلوع قوامها لظى
الشوق . النهاوند صوت من اعماق النفس الحزينة . نعم متجسم من
مهجور يسأل عطفاً على رفقته قبل ان يضيئه البعاد . زفرات يائس
انشائها المرارة وتنهدات قانط يبتها لوعة من اناقه الصبر والتجشّد .
النهاوند يمثل الحريف وتساقط اوراق الاشجار المصفرة بسكينة وهدير،
وتلاعب الريح بها وتفريق شملها . النهاوند صلاة والدّة نأى ابنها الى
ارض بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصدّه
بفواعل الصبر والامل . وفي النهاوند معنى بل معانٍ واسرار يفهمها
القلب وتفقهها النفس . اسرار يحاول بثها اللسان وكشفها القلم فيجفّ
هذا وتنقطع اوصال ذاك .

الاصفهان

واصنيت (للاصفهان) فشاعدت ، بعين سعي ، آخر فصل من
حكاية عاشق دنف ، مات حبيبته فتقطعت عرى آماله وتواصلت زفرائه
فهو ينوح بأخر ما في جسده من الحياة ، ويرثي ببقايا ما في حياته
من الرمي . الاصفهان آخر نفس من منازع واقف ، في مركب الموت ،
بين شاطئ الحياة وبحر الابدية . الاصفهان رثاء اذات بعضات متقطعة
متواصلة وتنهيدات عميقة . نغمة خداهما سكونية تازجها مرارة الموت
والاسى وحلاوة الدمع والوفاء .

وإن كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الامل ، فالاصفهان انين
من انقضت عرى آماله .

الضبا

نسمع (الضبا) فتستيق منّا قلوب حبيبته لحف الغم وتستيقظ
وترقص بين الضلوع . فالضبا نغمة فرح تنسي المرء اتراحه فيطلب
الراح ويشرها بلادة غريبة ويستزيد منها كأنه يعلم ان خمرة المسرة

تسابقها فتعكم بالعاقلة . الصبا حديث محب مغتبط صارع الدهر وأرغم
 انف البين واستعدده الليالي بخلوة فحظي بلقاء محبوبية جميلة في حقل
 بعيد ، فأولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً . الصبا كفسيات الصبا تمر فتهد
 لها ازاهر الحقل تيباً وابتهاجاً .

الرصد

و (للرصد) ، في سكونة الليل ، وقع في المشاعر يحاكي تأثير
 كلمات رسالة جاءت من عزيز غال ، انقطعت اخباره في بلاد بعيدة ،
 فجاء الكتاب يحيي عاطفة الامل ويعد النفس باللقاء . وكأني بمغتني
 الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام ، وقد قيل : « ان جهاز ليلاك
 فارصد . »

وفي العتابة البعلبكية عتاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف ،
 ولحنها مزيج من الشاوند المؤثر والصبا المفروح وفعلها في النفس فملها .

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، اراني كطافل ينسخ كلمة من
 نشيد طويل ، غشته الملائكة عندما جعل الله الانسان الاول ، او
 كأني يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات المشاعر

قبيل ابتداء الدهر .

فيا ايها الموسيقى ، يا اوتري المقدسة^١ ، لقد رقصت اخوانك الفنون
فيا غير من الاجيال زمناً ، ووضعن في معاقل النسيان آخر ، وانت
هزئين بين^٢ ولم تتنازلي عن مسرح النفس يوماً واحداً ، فكأنك صدى
القبلة الاولى التي وضعها آدم على شفتي حواء . صدى له صدى له صدى ،
تتناقل وتناسخ وتكتنف الكل وتحيا بالكل ، يلدن اعمالها عملهم ويفرح
الغير الموهوب من مكارمها بسبعه .

يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات
القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا راحة متصاعدة من
طاقة زهور المشاعر المضومة . يا لسان المحبين ومذبة اسرار العاشقين .
يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موجة الشعر ومنظمة
عقود الاوزان . يا موحدة الافكار مع تنف الكلام ومؤلفة المشاعر
من مؤثرات الجمال . يا خسارة القلوب الرافعة شاربها الى اعالي عالم
الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين . يا اينها
النموجات الاثيرة الحاملة اشباح النفس ويا بحر الرقة واللف ، الى
امواجك نسلم انفسنا . وفي اعناقك نستودع قلوبنا ، فاحملها الى ما
 وراء المادة وأرينا ما تكتنه عوالم الغيب .

تكاثري يا عواطف النفوس وتعاطمي يا مشاعر القلوب وارفعي
ايادي ذوي الايادي لبناء الهياكل لهذه الآلة العظيمة ، وانزل يا ملاك

١ اوتري : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان .

الوحي على قلوب الشعراء واسكب في خلايا قريحهم مديحاً وتسبيحاً
لهذه العظيمة المقدسة . واكبري يا محيطة الرسامين والنقاشين وابتهدي
لها صوراً وأشباحاً .

كروا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها وعبدوا لذكر خدامها
وشيدوا لهم النمايل . صلي ايها الامم وسلمي على اورفيوس وداود
والموصلي ، وعظمي ذكر يثيوفن وقفن وموزار . وغني يا سوريا
باسم شاكر الحلبي ، ويا مصر باسم عبده الحمولي . كبر ايها الكون
الأي بشوا في سمائك انفسهم وملأوا الهواء ارواحاً لطيفة وعلّموا
الانسان ان يرى بسمعه ويسمع بقلبه . آمين .

عرايس المروج



رماد الاجيال والنار الخالدة

١

توطئة

(في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل ورفدت الحياة في مدينة الشمس^١ وأطفئت السرج في
المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين اشجار الزيتون والفار،
وطلع القمر فانسكبت اشعته على بياض الاعمدة الرخامية المنتصبة
كاجبابرة تحفر في هدوء الليل مذايح الآلهة ، وتنظر تبهاً واعجاباً نحو
بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين ارواح النيام
واحلام اللانهاية ، جاء فلان ابن الكاهن ودخل هيكل عشتروت^٢ حاملاً

١ هي بعلبك اي مدينة بعل اله الشمس وقد دعاها الاقدونيون مدينة الشمس
(هليوبوليس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله . وقد اتفق المؤرخون على انها كانت اجمل
مدينة في سوريا . اما الخراب الباقية الى يومنا هذا فأكثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم
سوريا . ٢ هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور وحيدا وجبل وبعلبك ،
وبعض صفاتها قولهم : « موقدة نعمة الحياة وخارسة الشيبه » . وقد اخذ اليونان عبادتها
من الفينيقيين ودعوها افروديت ربة الحب والجمال ، والرومان يدعونها فينيس .

مشعلاً، ويبد مر نجفة آثار المسارح واوقد المباخر فتصاعدت روائح المر
واللبان، ووشعت قمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه بوقع الأمانى
المحيط بالقلب البشري، ثم ركع أمام المذبح المصفح بوقوق العاج
والذهب ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع،
وبصوت مخفضه الغفقات الاليمية وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً:
رحمك يا عشتروت العظيمة - رحماك يا ربّة الحب والجمال، تراني
في وازيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسي بشيئتك . . . لقد
نبت أعاصير الأطباء ومساحيقهم، وباطلاً ضاعت تعازيم الكهان
والعرافين، ولم يبق لي غير اسمك المقدّس عوناً ومساعداً، فاستجيني
تضرعاً، وانظري انسحاق قلبي وتوجع عراطفي، وأبقي شطر نفسي
حيّاً بجانبك، لنفرح بأمراد محبتك ونسعد بحمال الشيبه المعلقة خفايا
محبك . من هذه الأعماق اصرخ اليك يا عشتروت المقدسة . من وراء
ظلمة هذا الليل استجير بحنانك . فاسمعي انا عبدك فاثان ابن الكاهن
حيروم الذي وقف عمره على خدمة مذبحك - قد احببت حيّة من
بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان ونفثن في جسدها
اللطيف لثات علّة غريبة، ثم بعثن رسول المايا لبقودها الى معاودهن
السحريّة، وهما هو الآن رابض بقرب مضجعي، يزجر كالنمر الجائع،
مخيماً عليها بأجنحته السوداء، مادّاً مقابضه الخشنه ليغتمها من بين
خلوعي . من اجل ذلك جئت اليك مثلاً، فارحمني وابقيها زهرة لم

١ - كانت العرب في الجاهلية تقول ان الجنه اذا نعتت فني من الانس منعه من الزواج،
وان فعل سحرت عروسته او اماتها، وهذه الاعتقادات الشرية ما برحت حية في بعض
قوى لبنان .

نفرح بعد بحال صيف الحياة ، وطائراً لم يكمل تغريدة مسرته لمجيء
فجر الشبيبة . انقلدنا من بين اظفار الموت قنبذج بأغاني مدائحك ، مقدّمين
النعروقات لمجد اسمك ، فاحررين الضحايا على منبجك ، مائتين بالخير القديم
والزيت المطيب آتية خرائتك ، فارشين بالودود والياسين رواق
فيكلك ، محرقةين البخور والعود الذكي الرائحة امام تماثلك . خلصينا
يا ربّة المعجزات ودعي المحبة تغلب الموت ، فأنت ربّة الموت والمحبة .

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد تنهداً . ثم
عاد فقال : « اواه ! لقد تضعضت احلامي يا عشقوت المقدسة وذابت
حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني ، فأحييني بالرافة
وأبقي لي حبيبتي . » ودخل اذ ذاك عبد من عبده واقرب منه ببطء
وهس في اذنه هذه الكلمات : « لقد فتحت عينها ياسيدي ونظرت
حول مضجعتها فلم ترك ثم نادتك بالاجابة فيست لأدعوك إليها . »

فقام ثابان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه . ولما بلغ صرحه دخل حجرة
العليلة والحنى فوق سريرها آخذاً يدها النخيلة بين يديه مقبلاً شفتيها
مراراً كأنه يريد ان ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ،
فحركات نحوه وجها الفارق بين المساند الحريية وفتحت اجفانها
قليلاً ، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقية الحياة في جسدها
اللطيف ، هي آخر اشعة من نفسها المودعة — هي صدى نداء القلب
المسارع نحو الوقوف . ثم قالت ومقاطع صوتها تشابه انقاس طفل
الفقيرة الجائع : « قد نادني الآفة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ابغضائي
علك ، فلا تجزع لأن مشيئة الآفة مقدسة ومطالب الموت عادلة . انا

ذاهبة الآن وكأنا الحب والشيبة ما برحنا طافحين في ايدينا، ومسالك
الحياة الجميلة ما زالت منبسطة امامنا . انا راحلة يا حبيبي الى مسارج
الأرواح وسوف اعود الى هذا العالم لأن عشقوت العظيمة ترجع الى
هذه الحياة ارواح المحبين الذين ذهبوا الى الابدية قبل ان يتمتعوا
بذوات الحب وغبطة الشيبة . سوف نلتقي يا فنان ونشرب مراً ندى
الصباح من كؤوس النرجس ونفزع مع عصافير الخليل بأشعة الشمس .
الى اللقاء يا حبيبي . »

والمخفف صوته وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة افاح ذابلة امام
نسيمات الفجر ، فضمتها حبيبها وبلبل عنقها بالعبرات ، ولما قرّب شفاه
من ثغرها وجدّه بارداً كالثلج ، فصرخ صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه وارتمى
على جنبها الهامدة وروحه المتوجعة توارح بين بلع الحياة وهاربة
الموت .

في عدوّ ذلك الليل ارتجفت اجفان الرافدين وجزعت نساء الحي
وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطلت ملابس الدجى بنواع موجع
وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشقوت .

ولما جاء الصباح طلب القوم فناناً لمعزّوه ويؤاسوه في مصيبتهم فلم
يجده .

١ قال نبي الاسلام (ص) : « وكنتم امواتاً فلأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه
ترجعون . » وقال بوذا الهندي : « كنا بالأمس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف
نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة . »

وبعد ايام جاءت قافلة من المشرق اخبر زعيمها بأنه رأى ناثان
نائباً في البرية البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان .



مرّت الاجيال ساحقة بأقدامها الخفيفة اعمال الاجيال ، وبعدت
الألفة عن البلاد وحلّت مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم ويبهجها
التفريب ، فدأكت هياكل مدينة الشمس الفضة وتقوّضت قصورها
الجميلة ويشتت حداثتها النضرة ، وأجذبت حقولها الخصيبة ، ولم يبقَ
في تلك البقعة غير طلل يال يمين للذاكرة اشباح الامس فيؤاها ، ويرجع
لنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها .

ولكن الاجيال التي تمرّ وتسحق اعمال الانسان لا تفني احلامه ،
ولا تضعف عواطفه .

فالاحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلبي الخالد ، وقد تتوارى
حيناً وتبجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيئ الليل وبالقمر عند مجيئ
الصباح .

في ربيع سنة ١٨٩٠ هـ لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واطمحل النور ولئت الشمس وشاحها عن سهول
بعلبك فعاد علي الحسيني^١ امام قطيعه نحو خرائب الميكل ، وهناك
جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها أضلع جندي متروك مرقتها الميحاء
وجردتها العناصر ، فربغت اغنامه حوله مستأنمة بأنغام شبابه .
انتصف الليل ، وأثقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته ،
فتعبت اجفان علي من اشباح البقطة وكسئت عاقلته من مرور مواكب
الحالات السائرة بسكينة خفيفة بين الجدران المهدومة ، فانكأ علي
زنده ، واقترب النعاس ولامس حواسه بأطراف ثنايا نقابه مثلاً
يلامس الضباب اللطيف وجهه البحيرة الهادئة ، فتسي ذاته المقنبة
والتقى بذاته المعنوية الحفية المفعمة بالاحلام المترفعة عن شرائع
الانسان وتعاليمه ، واتسعت دوائر الرؤيا امام عينيه ، وانبسطلت له
خفايا الاسرار ، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو
اللاشيء ووقفت وحدها امام الافكار المتناسقة والحواطر المتسابقة ،
ولأول مرة في حياته عرف ان كاذ يعرف اسباب المجاعة الروحية
الملاحقة شبيبته . تلك المجاعة التي توحد بين حلاوة الحياة ومرارتها .
ذلك الظمأ الجامع بين تأوُّه الحنين وسكينة الاستكفاء . ذلك الشوق

١ الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الجيام في سهل بعلبك في ايامنا هذه .

الذي لا تؤيله ايجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر . لاول مرة في حياته
 شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة ايقظتها خرائب الهيكل . عاطفة رقيقة
 في الذكرى بمنزلة البخور من المآجر . عاطفة سحرية قد انعكفت
 على حواسه انعكاف انامل الموسيقى على صفوف الاوتار . عاطفة جديدة
 قد انبثقت من اللاشيء او من كل شيء ، ونمت وتدرجت حتى عانقت
 كآبته المعنوية ومسلات نفسه بشغف مدنف بلطف وتوجع مستعذب
 برارته مستطيب بقساوته . عاطفة تولدت من خلايا دقيقة واحدة
 مفعمة بالنعاس ، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الاجيال مثلما تتناسل
 الاعم من نطفة واحدة .

نظر علي نحو الهيكل المهدوم وقد تبدل النعاس ببقطة روحية
 فظهرت بقايا المذبح المخذشة واتضعت اماكن الاعمدة المرمية واسس
 الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه ، ومثل ضرير عاد النور الى
 عينيه فجأة فصار يرى ويفكر ويتأمل - يفكر ويتأمل - ومن
 فوجحات التفكير ودوائر التأمل تولدت في نفسه اشباح الذكرى
 فتذكر - تذكر تلك الاعمدة منتصبة بفخر وعظمة . تذكر المسارج
 والمباخر الفضيّة محيطة بتثال معبودة مهابة . تذكر الكهّان الوقورين
 يقدمون الضحايا امام مذبح مصفّح بالعاج والذهب . تذكر الصبايا
 الضاربات الدفوف والفتيان المتوقّنين بمدايح ربّة الحب والجمال . تذكر
 ورأى هذه الصور متضحة لجبرته الشكوبية وشعر بتأثيرات غوامضها
 تحرك سواكن اعماقه . ولكن الذكرى لا تعيد غير اشباح الاجسام
 التي نراها فيها غير من اعمارنا ولا يرجع الى ماسمنا الا صدى

الاصوات التي وعنها آذاننا ، فأية علاقة بين هذه التذكارات السحرية
وماضي حياة فتي ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطعاً
من الغنم في البرية ؟

قام علي ومشي بين الحجارة المتقوسة وتذكاراته البعيدة تزيح
اغشية الفسيان عن مخيلته مثلما تزيل الصبغة لسيح العنكبوت عن
بللور مرآتها . حتى اذا ما بلغ حدود الهيكل وقف كأنه في الارض جاذباً
يتسكك بقدميه ، غنظر واذا به امام مثال مهشّم ملقى على الخضيف ،
فر كع بجانبه على غير هدى وعواطفه تندفق في احشائه مثلما يتسارع
تزييف الدماء من جوانب الكلوم البليغة ، ونبضات قلبه تتكاثر
وتتاهل مثل امواج البحر المتصاعدة المنفضة . فخشع بصره وتأوه
برارة وبكى بكاء اليماء لأنه شعر بوحدة جارحة وبهاد متلف فاحل
بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه الى هذه الحياة .

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فعلها
الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر .

شعر بخفيف أجنحة لطيفة ترخف بين أضلعه الملتبسة وحول لفائف
دماغه المتحللة .

شعر بالحب القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك انفسه ، ذلك الحب
الذي يبيح مكنونات النفس لنفس ويفعل بغايله بين العقل وعالم
المقاييس والكسبة ، ذلك الحب الذي نسمه متكسماً عندما نخرم السنة
الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عندما تهب الظلمة كل الاشياء .
ذلك الحب ، ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس علي

الحسني وايقظ فيها عواطف حلوة ومرة مثلما تستبث الشمس الزهور
بجانب الاشواك .

ولكن ما هذا الحب ، ومن اين اتى ، وماذا يريد من قتي رابض
مع قطيعه بين تلك الهياكل الرمية ؟ ما هذه الحجرة السائلة في كبد
لم تحركه قط لواحظ الصبايا ؟ وما هذه الاغنيّة السامية المتوجّعة في
سامع بدوي لم يطويه بعد صدور النساء ؟

ما هذا الحب ومن اين اتى ، وماذا يريد من علي المشغول عن
العالم بأغنامه وشبابه ؟ هل هي نواة ألقتهها بحاسن بدوية بين أغصان
قلبه على غير معرفة من حواسه ، ام هو شعاع كان محتجباً بالضباب
وقد ظهر الآن لينير خلأيا نفسه ؟ هل هو حلم سعى في سكونية الليل
ليستقر بمواطفه ، ام هي حقيقة كانت منذ الاول وسبقى الى آخر
الدهر ؟

أغمض عليّ اجفانه المغلفة بالدموع ومدّ يديه كالمنسول المستعطف
وارتعت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات
المتلعة المؤلفة بين ذاك الشكوى وحرقة الشوق ، وبصوت لا
يسره عن التهديد غير دنات الالفاظ الضعيفة هتف قائلاً :

« من انت اينها القرية من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة
بينني وبينني ، الموثقة حاضري بأزمة بعيدة منسية ، أطيّف حوريّة
جاءت من عالم الخلود لتبين لي بطل الحياة وضعف البشر ام روح
ملككة الجان تعاضدت من شقوق الأرض لتشرق مني عاقلتي ونجملي
سحريّة بين قتيان عثرتي ؟ من انت وما هذا القتون المبيت المحبي

القباض على قلبي ؟ وما هذه المشاعر المائلة جواني نوراً وفاراً ؟ ومن
انا وما هذه الذات الجديدة التي ادعوها (انا) وهي غريبة عني ؟ هل
تجرعت ماء الحياة مع دقائق الاثير فصرت ملاكاً ارى واسمع
خفايا الاسرار ، ام هي خمر وساوس سكوت بها فتغامت عن حقائق
المعقولات ؟ »

وسكت دقيقة وقد غمت عواطفه وتسامت روحه فقال : « يا من
تبينها النفس وتدنسها ويحببها الليل ويقصبها - ايها الروح الجميلة
الخالئة في فضاء اجلامي ، قد ايقظت في باطني عواطف كانت نائمة مثل
بدور الزهور المختبئة تحت طباق الثلج ، ومررت كالنسيم الحامل
انفاس الحقول ولا مست حواسي فاهتزت واضطربت كأوراق
الاشجار ! دعيني اراك ان كنت لابساً من المادة ثوباً . او مري النور
ان يغمض اجفاني فأراك بالتمام ان كنت معتوقة من التراب . دعيني
المسك . اسمعيني صوتك . مز في هذا النقاب الحاجب كليتي واعلمي
هذا البناء السائر الوهني وهبني جناحاً فأطير وراءك الى مسارج الملأ
الأعلى ان كنت من سكائها او لأمسي عيني بالسحر فأتبعك الى
مكامن الجان ان كنت من عرائسها . ضعي يدك الخفية على قلبي
وامتلكيني ان كنت حريصاً باتباعك . »

كان علي يمس في آذان الدجى كلماته المتناسقة عن صدى نغمة
متأيلة في اعماق صدره وبين ناطقه ومحيطه تنسل اشباح الليل كأنها
ابخرة متولدة من مدامعه السخينة ، وعلى جدران الهياكل تتمثل له
صور سحرية بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغتبط بلوعته ، سامع نبضات قلبه ، ناظر الى ما وراء الاشياء كأنه يرى رسوم هذه الحياة تضجّل ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب يحاسنه هائل بهرجاسه ، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء متوقّباً هبوط الوحي صار ينتظر ما يأتي الدقائق وتنبيداته السرعة توقف انفاسه المادئة ، ونفسه تتوكله وتسبح حوله ثم تعود اليه كأنها تبحث بين تلك الحرائب عن ضائع عزيز .

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمور نسائته وسال النور البنفسجي بين دقائق الاثير ، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم حليف حبيته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران الحرائب ، وصارت تثقل بين تلك الاعمدة وتترنّم وتتناجى متنبئة بما في النهار ، فانتصب علي واضعاً يده على جبهته الملتببة ونظر حوله بطرف جامد ، ومثل آدم عندما فتحت عينه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كل ما يراه . ثم اقترب من نعامه وناداهما فقامتا وانتفضتا ومشتا وراءه يهدوء نحو المروج الخضراء . سار علي امام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدقتان بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفه عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود ومستتراته وتربة ما غير من الاجيال وما بقي منها بلمحة واحدة ، وبلعمة واحدة نفسه كل ذلك وتعيد اليه الشوق والطين ، فيبعد ذاته متعجباً عن روح روضة الحجاب العين عن النور ، فيتهمّد ومع كل تنهيدة تلسخ شعلة من قواده المنقد .

بلغ الجدول المذيع بحزيره سرائر الخقول فجلس على خفنه تحت
 اغصان الضعاف المتدلية الى المياه كأنها تروم امتصاص عذوبتها ،
 وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع على بياض صوقها ،
 ولم تمر دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات
 روحه ، ومثل رافد أجفلته أشعة الشمس تحرك وتلقت حوله فرأى
 صبيحة قد ظهرت من بين الاشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدم على
 مهل نحو الغدير وقد بلل الندى قدميها العاريتين .

ولما بلغت حافة الجدول وانحنت لشملاً جرّتها التفتت نحو الحافة
 المقابلة فالتفت عيناها بعيني علي فشبهت ورومت بالجرّة ثم تراجعت
 قليلاً الى الوراء وشغعت به شخص ضائع وجد من يعرفه . . .
 مرّت دقيقة كانت ثوابها مثل مصابيح تهدي قلوبها الى قلبها
 مبتدعة من السكينة انغاماً غريبة تعيد الى نفسيهما صدى لندكرات
 مبهمة وتيسر الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور
 واشباح بعيدة عن ذلك الجدول وذلك الاشجار ، فكان كل منهما
 ينظر الى الآخر نظرة الاستعطاف وينفوس فيه مستطفاً ملامحه مصغراً
 لشهادته بكل ما في عراطفه من المسمع ، مناسيباً ايّاه بكل ما في
 نفسه من الالسنه ، حتى اذا ما نمت التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين
 عبر علي الجدول مجذوباً بقوة خفية واقرب من الصبيحة وعانقها
 وقبّل شفيتها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم تبد حراكاً بين ذراعيه
 كأنّ لذة العناق قد انتزعت منها ارادتها ، ورقة الملامسة قد اخذت
 منها قواها ، فاستسلمت استسلام انفس الياسمين لثموجات الهواء ،

وأثقت رأسها على صدره كمنعجب وجد راحة ، وتنهدت تنهيدة عميقة
تشير الى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلمن ثورات جوارح
كانت رافدة فأفاقت ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى عينيّه نظرة من
يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة - لغة الارواح -
نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في اجساد من اللفاظ .

مشى الحبيبان بين اشجار الصفصاف ووحداً في كلتيهما لسان فاطمى
بتوحيدهما ، ومسمع منحت لوجي المحبة ، وعين مبصرة بمجد السعادة ،
تبعهما الخراف مرقعة وؤوس الاعشاب والزهور ، وتقابلها العصافير
من كل ناحية مرثلة اغاني السحر !

ولما بلغا طرف الوادي ، وكانت الشمس قد طلعت وأثقت على
تلك الروابي رداءً مذهباً ، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلمها .
وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني علي وفد تلاعب النسيم بشعرها
كأنّ النسيم شفاه خفيّة تروم نقيبتها ، وشعرت بأنامل سحريّة تداعب
لسانها وشفتيها رغم ارادتها ، فقالت وفي صوتها حلالة جارية :

- قد اعادت عشقوت روحينا الى هذه الحياة كيلا نحترم ملذات
الحب ، ومجد الشبية يا حبيبي !

فأغض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها وسوم حلم
طالما رآه في نومه ، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك
المكان وارقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثان
امرأة جميلة أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها ، فصرخ ملثاعاً من هول

المشهد ثم فتح انجفانه فوجد تلك الصبية جالسة بجانبه وعلى شفتيها
ابتسامة محبة. وفي لحظة اشعة الحياة ، فأشرق وجهه وانتعشت روحه
وتضعفت خيالات رؤياه ونسي الماضي ومآليه . . .

تعاثق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا ونام كل منهما
ملتفًا بذراعي الآخر الى ان مال الظل وايقظتهما حرارة الشمس .

مرثا البانية^١

١

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة ،
فتركت يتيم في بيت جاري فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور
الأرض ومأواها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار
الجوز والحوار ، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذلّ
التبسم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور
العالية والأشجار المحتبكة ، وكانت تسير في كل صباح عارية القدمين
رثة الثوب وراء بقرة حلب إلى طرف الوادي حيث المرعى الحبيب ،
وتجلس بظل الأغصان متوتئة مع العصافير ، باكية مع الجداول ،
حاسدة البقرة على وفرة المأكّل ، متأملّة بنمو الزهور ورفرفة
الفراش . وعندما تغيب الشمس ويضئها الجوع ترجع نحو ذلك
الكوخ وتجلس مع صبية وليّتها ملتزمة بخبز الذرة مع قليل من التمار
المجففة والبقول المغسوة بالحل والثريد ، ثم تفتش القش اليابس
مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوماً

١ نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان .

عبيقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه البقطة . وعند مجيء الفجر ينتهرها
ولبها لثاء حاجة فتبب من رقادها مرعدة خائفة من سخطه وتعيقه .
كنا مرث الاعوام على مرثا المسكينة بين تلك الروابي والادوية
البعيدة ، فكانت تسر بنمو الأنعاب وتولد في قلبها العواطف على غير
معرفة منها مثلما يتولد العطر في اعماق الزهرة ، وقتناهما الأحلام
والفواجس مثلما تتأرب القلعان مجاري المياه ، فصارت صبيّة ذات
فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت
عليها أقدام الانخيار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منقّية بحكم القدر
الى تلك المزرعة حيث تنقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ إله
غير معروف جالس بين الارض والشمس .

نحن الذين حترفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً
عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان ، قد سرنا مع تيار
المدنيّة الحديثة حتى نسبنا أو تناسلنا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة
المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة التي اذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة
في الربيع ، منقاة في الصيف ، مسنّعة في الخريف ، مريحة في الشتاء ،
متشبهة بأمننا الطبيعية في كل ادوارها . نحن اكثر من القرويين مالاً
وهم اشرف صنّاً نفوساً . نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً ، اما هم
فيحصدون ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا وهم ابناة قناعتهم . نحن
نشرب كأس الحياة بمزوجة برارة اليأس والخوف والملل ، وهم
يرتشفونها صافية .

بلغت مرثا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة حقيلة تعكس

محاسن الحفول وقلوبها شبيهاً بجلايا الوادي يرجع صدى كل الاصوات ...
ففي يوم من ايام الحريف المملوءة بتأوذه الطبيعة جلست بقرب العين
المتعنتة من اسر الارض انعمتاق الافكار من مخيلة الشاعر تتأمل
باضطراب اوراق الاشجار المصفرة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب
الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتزأعاً قد ذبلت ويبيت
قلوبها حتى تشقت واصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء
بالجواهر والحلى ايام الشدات والحروب .

وبينا هي تنظر الى الزهور والاشجار ، وتشم معها بألم فراق
الضيف ، سمعت وقع حوافر على حصاء الوادي ، فالتفت واذا بفارس
يتقدم نحوها ببطء ، ولما اقترب من العين وقد دلت ملاحه وملازمه
على ترف وكياسة ، ترجل عن ظهر جواده وحياها بلطف ما تعودته
من رجل قس ، ثم سألها قائلاً : « قد سمعت عن الطريق المؤدية الى
الساحل ، فهل لك ان تهديني اينها الفتاة ؟ » فأجابت وقد وقفت منتصبه
كالغصن على حافة العين : « لست ادري يا سيدي ولكنني اذهب
وأسأل وليي فهو يعلم . » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد اكسبها
الحياء جمالاً ورفقه ، واذهبت بالذهاب اوقفها الرجل وقد سرت في
عروقه خمرة الشبية ونفوت نظراته وقال : « لا ، لا ذهبي . » فرفقت
في مكانها مستغرقة شاعرة بوجود قوة في صوته تمنعها عن الطراك .
ولما اختلست من الحياء نظرة اليه وأنه يتأمل بها باهتمام لم تنقه له
مقنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته ، وينظر بمودة
وميل الى قدميها العازيتين ومعصبيها الجميلين وعنقها الاملس وشعرها

الكثيف الناعم ، ويتأمل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت الشمس
بشرنها وقوّت الطبيعة ساعديها ، أمّا هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد
الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها الى الحظيرة ، أمّا
مرتا فلم ترجع ، وأمّا عاد وليثها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد
ولم يجدها ، فكان يناديها باسمها ولا يجيبه غير الكهوف وتأوهات
الهواء بين الاشجار . فرجع مكتئباً الى كوخه واخبر زوجته فبكّت
بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول في سرّها : رأيتها مرّة في الحلم
بين اظافير وحش كاسر يمزّق جسدها وهي تبسم وتبكي !

هذا اجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ، وقد
تعبّرته من شيخ قروي عرفها منذ كانت طفلة حتى شبّت واختفت
من تلك الاماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة
وليثها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك
الوادي ، ثم تضجّل كأنها هات طفل على يلبور النافذة .

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بهد ان صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ، وقبل دخولي الى المدرسة قضيت اسبوعاً كاملاً انجول مع اترابي في المدرسة متسعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبية وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ، فكنتا اشبه بعصافير رأيت ابواب الاقفاص مفتوحة امامها فضاوت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، والشبية حلم جميل تستوق غدوته معنيات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين احلام الشبية ولذة المعرفة مثلما يجمع العناب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والانسانية كتابه ، والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم ؟ لا ندري ، ولكننا نشعر بسيونا الخبيث نحو الارتقاء الروحي ، وذلك الارتقاء هو ادراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل اتأمل العراكة المستمرة في ساحة المدينة ، واسع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمأككل ، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي اظفاراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث والانكسار الأليم قال :

— أتشتري زهراً يا سيدي ؟

ف نظرت الى وجهه الصغير المصغر ، وتأملت بعينه المكحولتين
بجبالات النحاسة والفاقة ، وفيه انفتوح قليلاً كأنه جرح عميق في
صدر متوجع ، وذراعيه الماريتين النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة
المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين
الأعشاب النضرة ، تأملت بكل هذه الأشياء بلهجة مظهر شفتي
بابتسامات هي أمر من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشق من اعماق
قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لنصاعدت وانسكبت
من مآقينا ، ثم ابتعت بعض زهوره وبقيت ابتياع محادثته لأنني شعرت
بأن من وراء نظراته المخزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة
الفقراء الدائم متبليها على ملعب الأيام ، وقل من يتم بشاهدتها لأنها
موجعة . ولما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر اليّ
مستغرباً لأنه مثل اتوا به الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك
الذين ينظرون غالباً الى صبية الأزقة كأشياء قدرة لا شأن لها ، وليس
كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلاً :

— ما اسمك ؟

فأجاب وعينه مطرقتان الى الأرض :

— اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت وابن اهلك ؟

قال : انا ابن مرثا البانيّة .

قلت : وابن والدك ؟

فهو رأسه الصغير كمن يجبل معنى الوالد . فقلت :

- وابن امك يا فؤاد ؟

قال : مريضة في البيت .

تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتنعتها
عواطفى مبتدئة صوداً وأشباحاً غريبة حزنة لأنى عرفت بلعظة ان
مرنا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن في
بيوت مريضة . تلك الصبيّة التي كانت بالأمس مستأمنة بين اشجار
الأودية هي اليوم في المدينة تعاني ماض الفقر والوجاع ، تلك
البنية التي صرفت شببتها على اكف الطبيعة ترى البقر في الحقول
الجميلة قد المحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين
اظفار التعابة والشفاء .

كنت افكر واتخيل هذه الاشياء والصبي ينظر الى كأنه رأى
بعين نفسه الظاهرة انسحاق قلبي . ولما اراد الانصراف امسك
بيده قائلاً :

- سر في الى امك لأنى اريد ان اراها !

فسار امامي صامتاً منعجباً ، ومن حين الى آخر كان ينظر الى
الزراء ليرى اذا كنت بالحققة مشبعاً خطواته .

في تلك الارقة القنطرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ، بين تلك

المنازل البالية حيث يركب الاشرار جرائمهم مخبئين بستائر الظلمة ،
وفي تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين وإلى الشمال التواء الافاعي
السوداء كنت اسير بخوف وتريب وراء صبي له من حدائنه ونقاوة
قلبه شجاعة لا يشمر بها من كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم في مدينة
يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرّة ناع البلاطين ، حتى اذا ما
بلغنا اذبال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبقى منه السنون غير جانب
متداعٍ ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى
صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث غير مرآج
ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعث الصفراء ، وسرير حشير يدلّ على
عوز مهروح وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة نائمة قد حوّلت وجهها
نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم او كأنها وجدت بين
جدرانها قلباً أرقّ وألين من فلوب البشر . ولما اقترب الصبي منها
منادياً : « يا امّاه ! . . » التفت اليه قرأته يومئذ نحوى فتحرّكت
اذذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت مومض يلاحقه ألم النفس
والتنديدات المرة قالت :

— ماذا تريد ايها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها
دنة بشواتك ؟ اذهب عني فالأزفة مشحونة بالنساء اللواتي ييمعنك
اجسادهنّ ونفوسهنّ بأبغض الاقنان ، اما اذا لم يبق لي ما ايمه غير
فضلات انفاس متقطعة ، عمّا هريب يشتري الموت براحة القبر !
فافتريت من سريريها وفقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها
التعسة ، وقلت منمياً لو كانت عواطفني تسيل مع الكلام :

— لا تخافي مني يا مرثاء ، فأنا لم اجيء اليك كحيوان جائع بل
كإنسان متوجع . انا لبنا في عشت زمناً في تلك الاودية والقرى القريبة
من غابة الارز . لا تخافي مني يا مرثاء !

سمعت كلامي وشعرت بأنها صادرة من اعماق نفس تتألم معها ،
اعتزّت على مضجعتها مثل الغضبان العارية امام رياح الشتاء ، ووضعت
يديها على وجهها كأنها تريد ان تستر ذاتها من امام الذكرى الهائلة
بجلاوتها ، المرأة يجهاها . وبعد سكونية بمزوجة بالتأوه ظهر وجهها من
بين كتفها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور
متصب في فضاء الغرفة ، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ،
وعقاً تتردد فيه حشرة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ،
وبصوت يشبه الالتاس والاستعطاف ويستوجعه الضعف والألم
فالت :

— جئت محسناً مشفقاً فلتجرك الساء عني ان كان الاحسان على
الخطاة يروا والشفقة على المزدولين صلاحاً ، ولكنتي اطلب اليك ان
نعود من حيث انيت لأن وفوفك في هذا المكان يكسبك عابراً
وهلّة ، وحناك عليّ يشرك عيباً ومهانة . ارجع قبل ان يراك
احد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأفذار الخنازير ، وسر مسرعاً
ساقراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق . ان الشفقة التي تملأ
نفسك لا تصيد لي طهارتي ، ولا تمنحني عيوي ، ولا تؤيل يد الموت
القوية عن قلبي . انا منفية بحكم تعاسي وذنوبي الى هذه الاعماق
المظلمة ، فلا تدع شفتك تدنيك من العيوب . انا كالأبرص الساكن

بين القبور فلا تقترب مني ، لأن الجامعة تحبك دنساً وتقصيك عنها
إذا فعلت . ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدسة ، لأن
النعجة الجرباء ينكرها راعبها خوفاً على قطيعه . وإذا ذكرتني قل قد
ماتت مرثا البائسة ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنتي الصغيرتين وقبلتها بلطف وقالت منبهة :
— سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين :
هذا ثمة الاعمى ، هذا ابن مرثا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف .
سوف يقولون عنه اكثر من ذلك ، لأنهم عيان لا يبصرون ، وجبلاً
لا يدرون أن امه قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت
عن حياته بتعاسها وشقاها . سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان
الأرقة وحيداً في هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة
تجعله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلاً ، فإن
حفظته السماء وشب رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى
امه ، وان مات ومخلص من شبكة السنين وجدني مرقبة قدره
هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبي يوحى اليّ : « لست كالأرض يا مرثا وان سكنت بين
القبور ، ولست دنسة وان وضعتك الحياة بين ايدي الدنسين . ان
ادران الجسد لا تلامس النفس القبيسة ، والنلوج المتراكمة لا تبت
البذور الحية ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان قدوس عليه أغوار
النفوس قبل ان تعطي غلتها ، ولكن ويل للسابل المتروكة خارج
البيدر ، لأن غل الأرض يربلها وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل

أهراء ربّ الخقل . انتِ مظلومة يا مرثا وظلمك هو ابن القصور ،
 ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . انتِ مظلومة ومحتقرة ، وخير
 للإنسان ان يكون مظلوماً من ان يكون ظالماً ، وأخلق به ان
 يكون شهيد ضعف الغريزة التوايية من ان يكون قوياً ساحقاً
 يقابضه زهور الحياة ، مشوهاً ببوله محاسن العواطف . النفس يا مرثا
 هي حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة الالهية ، فقد تصير النار الحامية
 هذه الحلقة وتغير صورتها وتحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل
 ذهبها الى مادة اخرى ، بل تزيد لمعاناً . ولكن ويل للشيم اذا تأتي
 النار وتلتهمه وتجمعه رماداً ثم تهبّ الريح وتذريه على وجه الصحراء...
 اي مرثا ، انتِ زهرة مسحوقه تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل
 البشرية . قد داستك تلك النعال بقساسة ، لكنها لم تحف عطرِكَ المتصاعد
 مع نواح الأرواح وصراخ اليتامى وتبديدات الفقراء نحو السماء مصدر
 العدل والرحمة . تعزّي يا مرثا بكونك زهرة مسحوقه ولستِ فدمماً
 ساحقاً !

كنت اكلأّم وهي مصغية وقد اثارَت التعزية وجهها المصفرّ
 مثلها لتسير أشعة المغرب اللطيفة خلّايا الفجر . ثم أومأت اليّ ان
 اجلس على جانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملائحتها المتكلمة عن مخبّات
 نسبا الحزينة . ملامح من عرف انه مائت . ملامح حيّة في ربيع
 العمر قد شمّرت بوقع اقدام الموت حول غراشها الباني . ملامح امرأة
 متروكة كانت بالأمس بين اودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وغوّة ،
 فصارت اليوم مهزولة ترقّب الانتماء من قبود الحياة . وبعد سكبنة

مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تنكاهم معها ونفسها
تتصاعد مع انفاسها :

- نعم ، انا مظلومة ، انا شهيدة الحيوان المقتني في الانسان ، انا
زهرة مسحوقة تحت الأقدام . كنت جالسة على حافة ذلك ينبوع
عندما مرّ راكباً . . . قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي اني جميلة
وانه قد احبني فلا يتركني ، وان البيرة الملوقة وحشة والأودبة هي
مساكن الطيور وبنات آوى . . ثم أوى عليّ وضممني الى صدره
وقبلني ، وكنت لم اذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأنني كنت يتيمة
متروكة . اردفني خلفه على ظهر الجراد وجاء بي الى بيت جميل مفرد .
ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمأكلة اللذيذة والمشارب
الطيبة . . . فعل كل ذلك مبتسماً سائراً بشاعة مبلولة وحيوانية
مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبة . . . وبعد ان أشبع
شهواته من جسدي وانتقل بالذلة نفسي غادرتني تاركاً في احشائي شمة
حيّة ملتصقة تغذت من كبدي رغبت بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة
من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل . . . وهكذا قسمت حياتي الى
شطرين : شطر ضعيف متألّم ، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل
طالباً الرجوع الى الفضاء الواسع . في ذلك البيت المنفرد تركني
الظلمة ووضيحي نقاسي مفضل الجوع والبؤس والوحدة ، لا معين لي
غير البكاء والنحيب ، ولا سفير سوى الخوف والمواجس . . .

وعلم رفاقه بمكانتي وعرفوا بعوزي وضعفي ، فجاء الواحد بعد
الأخر وكلّ ينتهي ابتياع العرض بالمال ، واعطاء الجبّز لقاء شرف

الجسد . . . آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديسها (الأبدية) ، ثم افلتتها
لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكها كان ولدي الذي أبدته السماء
عنها إلى هذه الحياة ، مثلما اقتضتني عن الحياة وألقني في أعماق هذه
الغلوية . . . والآن ها هي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء
بعد هجرانه ليقودني إلى مضجعه الناعم !

وبعد سكونة عيقة نشابه من الأرواح المظلمة ، رفعت عينها
المحبوبتين بظل المنية وقالت بهدوء :

.. أيا العدل الخفي ، الكامن وراء هذه الصور المضيئة ، أنت ، أنت
السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك اطلب
واليك اتضرع ، فارحمي وارح بيئتك ولدي ، وتسلم بيسراك
روحى !

وخارت قواها وضعفت تهادنها ، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن
وحنو ، ثم مبكّت عليها ببطء ، وبصوت يكاد يكون سكونية قالت :
« أبنا الذي في السموات . . . لينقذ اسمك . . . ليأت ملكوتك . . .
لنكن مشيبتك كما في السماء كذلك على الأرض . أغفر لنا ذنوبنا . »
وانقطع صرتها ، وبقيت شئناها متحركتين هنيهة وبوقوفهما همدت
كل حركة في جسدها . ثم اختلجت وتأوهت وأبيض وجهها وفاضت
روحها . وظلّت عيناها محدقتين بما لا يرى .

عندما جاء الفجر ووضعت جثة مرثا البائسة في تابوت خشبي، وحملت
على كتفي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد
رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا ان ترتاح عظامها في الجبانة
حيث الصليب يخفر القبور ، ولم يشيّمها الى تلك الحفرة البعيدة غير
ابنها وفي آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .

يوحنا المجنون

١

في أيام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملاً بحرائه على كتفيه ، مصفياً لتغاريده الشجاري وحفيف اوراق الأغصان ، وعند الظهيرة كان يقترّب من الساقية المتراخضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركاً على الاعشاب ما بقي من الحبز للعصافير . وفي المساء عندما ينتزع المغرب دفائق النور من الفضاء ، كان يعود الى البيت الحقيق المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصفياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الايام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً .

وفي أيام الشتاء كان يتكىء مستنداً بقرب النار ، سامعاً تأوّه الارياح وندب العناصر ، مفكراً بكيفية تنابع الفصول ، ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الادرية المكتسية بالثلوج ، والاشجار العارية من الاوراق كأنهم جماعة من الفقراء تركوا خارجاً بين اظفار البرد القارس والرياح الشديدة .

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم ينتح

الحزانة الحشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد ، ويقرأ منه سرّاً على

نور مسرحة ضئيلة ، متلفساً يتعذر بين الاونة والاخرى نحو والده
الناغم الذي منع عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكنيسة يتبون بسطه
القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويجرمونهم من « نعم الكنيسة »
اذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب
وكتاب يسوع المغمم بالثور والروح . كان سكوتاً كبير التأملات
يخصي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي بأثوابه الفتيان
ويجالسهم حائماً ناظراً الى البعيد حيث يلتقي الشفق بأوراق السماء .
واذا ما ذهب الى الكنيسة عاد مكتئباً ، لأن التعاليم التي يسمعا من
على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع
رؤسائهم ، هي غير الحياة البسيطة التي تكلم عنها يسوع الناصري .



جاء الربيع واضطلت الثلوج في الحقل والمروج ، وأصبحت
بقاياها في اعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في منعطفات
الاوردة ، وتجتمع انهاراً غزيرة تتكلم بهيولها عن بقطة الطبيعة ،
فأزهرت اشجار اللوز والتفاح ، وأورقت قضبان الحور والصفصاف ،
وانبتت الروابي اعشابها وازهرها ، فتمس يوحنا من الحياة بجانب
الموائد ، وعرف بأن عجزه قد ملئت ضيق المرائب ، واستأقت الى
المراعي الخضراء ، لأن مخازن التبن قد شحت ، وزدابل الشمر قد
نفدت . فجاء وحلها من معالها وسار امامها الى البرية سائراً بعباءته

كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على
كنف الوادي بقرب حقول الديور القائم كالبرج المائل بين تلك الغضاب ،
فتفرقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً الى حجرة
ينأمل قارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت
السموات .

كان ذلك النهار من اواخر ايام الصوم ، وسكان تلك القرى
المنقطعون عن اللحوم ، اصبحوا يتوقفون بفضلات الصبر بحبي عند
الفصح ، اما يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين
ايام الصيام وغيرها ، فامر كله كان صوماً طويلاً عنده ، وقوته لم
يتجاوز قط الجهد المعجون بفرق الجبين ، والثار المتساعة بدم القلب ،
فالانقطاع عن اللحوم وانما كل الشبهة كان طبيعياً . ومشتبهات الصوم
لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لأنها تميد الى نفسه ذكرى مأساة
« ابن البشر » ونهاية حياته على الارض .

كانت العصفير تفرق متاجية حول يوحنا ، وأسراب الحمام
لتطايير مسرعة ، والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تنهم بأشعة الشمس ،
وهو يقرأ في كتابه بشمعة ثم يرفع رأسه ويرى قباب الكنائس في
المدن والقرى المنشورة على جانبي الوادي ، ويسمع طنين أجراسها
فيغض عينيه وتسمع نفسه فوق أشلاء الاجيال الى اورشليم القديمة
متسمة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيحبونها قائمين :

١ هو دير غني في شمال لبنان واسع الأراضي ، يدعى دير البشاع التي ، يقطنه عشرات
من الرهبان المروفين بالحسين .

— هنا شفى العميان واقام المقعدين. وهناك ضفروا له اكليلاً من الشوك
ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكتمم الجوع بالامثال ،
وفي ذلك القصر كسّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه — في
هذا الشارع غفر لثاوية خطاياها ، وفي ذلك وقّع على الارض تحت
انقال صليبه .

ومرّت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد ، ويتجعد معه
بالروح ، حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم يَر
عجوله ، فمشى ملتفتاً الى كل ناحية مستغرباً اختفاءها في تلك المروج
السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكفّ
راى عن بعد رجلاً بلباس سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ،
ولما اقترب منه وعرف انه احد رهبان الدير ، حيّاه باحناء رأسه ثم
سأله قائلاً : « هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا ابتاه ؟ »
فنظر اليه الراهب متكلفاً اخفاء حنقه وأجاب بجبّث : « نعم رأيتهما
فهي هناك ، تعال وانظريها . » فصار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ،
فاذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفونها أحد الرهبان
وفي يده نبوت يجلدنها به كيفما تحركت ، واذ هم يوحنا ليقودها
أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته :
« هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه . » فهرول القس والرهبان من
كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يتأز عن رفاقه بنحافة اثوابه
وانقباض سحنته ، واحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ،
فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء : « ماذا فعلت لأكون مجرمًا ،

ولماذا قبضتم عليّ؟» فأجابته الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب ، وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال : « قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضت قضبان كرومه ، فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عما تخربه مواشيه . » فقال يوحنا مستطفاً : « هي بهائم لا عقل فإيا ابتاه ، وأنا فقير لا املك غير قوى ساعدي وهذه العجول ، فاتركني افودها واسير واعداً اياك بأن لا أجيء الى هذه المروج مرة اخرى . » فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً الى الأمام ورفع يده نحو السماء : « ان الله قد وضعنا هنا وركل الينا حماية اراضي مختاره الشراع العظيم ، فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهاراً بكل قواتنا لانها مقدسة ، وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة ، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لأننا نبقى بهائمك في حظيرتنا حتى نفني آخر فلس عليك . »

وهم الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا ، وقال متذكراً متوسلاً : « استحلفك يا سيدي بهذه الايام المقدسة ، التي تألم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم ، ان تتركني اذهب بمعجولي . لا تكن قلبي القلب عليّ ، فأنا فقير مسكين والدير غني عظيم ، فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي . » فالتفت اليه الرئيس وقال بجزء : « لا يسامحك الدير بتفقد ذرة ايا الجاهل ، فقيراً كنت أم غنياً ، فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لأننا اعرف منك بأسرارها وخفاياها ، وان شئت ان تتودع عجولك من هذه المرائب فاقتديها بثلاثة دنانير لقاء ما انتهت من الزرع . » فقال يوحنا بصوت مخنق : « انني لا املك بأرة واحدة يا ابتاه . فاستغنى

عليّ وأرحم فقري . « فأجاب الرئيس بمد ان مشط لحينه الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسماً من حقلك وعد بثلاثة دنانير ، فخير لك ان تدخل السماء بلا حقل من ان تكتب غصب اليساع العظيم باحتجاجك امام منبجده ، وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة . »

فسكت يوحنا دقيقة وقد اوقت عيناه وانبسط محبته وتبدلت لوائح الاسترحام بلامع القوة والارادة ، فقال بصوت متزوج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليخيف منه الى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمن العدل ان يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كىما يغفر اليساع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ » فقال الرئيس هازئاً رأسه استكباراً : « هكذا يقول يسوع المسيح » من له يعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه . »

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره ، وكبرت نفسه ، وتعالق قامته عن ذي قبل ، كأن الارض قد مدت تحت قدميه ، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستل الجندي سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلاً : « هكذا تتلاعبون بعالم هذا الكتاب ايها المراؤون . هكذا تستخدمون اقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ ياتي « ابن البشر » ثانية ويغرب اديرتكم ويأقي حجارتها في هذا الوادي ، محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم ونماذجكم ! ويل لكم من دماء يسوع الزكية ودموع امه الطاهرة ، اذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم الى أعماق الهاوية ! ويل وألف ويل لكم ايها الخاضعون لأصنام مقامعكم ، الساترون بالاثواب السوداء اسوداد مكروهاكم ، المحرقون

بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بهذا امام
الذابيح ونفوسكم متسردة على الله . قد قدوتني بجيئة الى هذا المكان
الملوئ بآثامكم ، وكمجرم قبضتم علي من أجل قليل من الزرع تستنبته
الشمس لي ولكم على السماء ، ولما استعطفكم باسم يسوع واستحللتمكم
بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنني لم أكنتم بغير الحفاقة
والجفالة . خذوا وابجثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع
مغفوراً ، واقرأوا هذه المأساة السماوية واخبروني اين تكلمتم بغير
الرحمة والرافة ، أفي موعظه على الجبل ، ام في تعاليمه في المبطل
امام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، ام على الجلجلة عندما بسط
ذراعيه على الصليب لبخم الجنس البشري . انظروا يا قساة القلوب
الى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوغى المرضى على أسرة
الأوجاع ، وفي حبوسها تفتى أيام البائسين ، وامام ابوابها يتضرع
المتسولون ، وعلى طرقاتها ينساق الغرباء ، وفي مقابرها تتوح الأرواح
واليتامى ، وانتم ههنا تسمعون براحة التواني والكسل ، وتلفذون
بنار الحقول وخمور الكروم . فلم تزوروا مريضاً ، ولم تفتقدوا سجيناً ،
ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤووا غريباً ، ولم تعزوا حزيناً . ولينكم
تكفون بما لديكم وتقهرن بما اغضبتم من جدودنا باسبابكم ، فانتم
تثبون ايديكم كما تثب الافاعي رؤوسها ، وتقضون بشدة على ما وقهرته
الاملة من عمل يديها وما ابقاه الفلاح لأيام شيخوخته . »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال
بهذه : « انتم كثار ههنا وانا وحدي . افعلوا بي ما شئتم ، فالذئاب تفرس

النجعة في ظلمة الليل لكن آثار دماؤها تبقى على حصباء الوادي حتى
يحيي الفجر وتطلع الشمس . »

كان يوحنا يتكلمهم وفي صوته قوة علوية توقف في ابدان الرهبان
الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة ، ومثل غريان جائعة في اقفاص
ضيقة كانوا يرتجفون غضباً وأسنانهم تصرف بشدة متوقبين من رئيسهم
اشارة ليمزقوه قزيقاً ويسحقوه سحقاً ، حتى اذا ما انتهى من كلامه
وسكت سكوت الهامفة بمد تكسيرها الاغصان الملتصخة والانصاب
اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلاً :

« اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجردوه الى
حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجذف على مختاري الله لا يفر له ههنا
ولا في الأبدية . » فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة
وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة واقفلوا عليه بعد ان نهكوا جسده
بجشونة أكفهم ورفس أرجلهم .

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفيق العدو
لأسره ، ونظر من الكوة الصغيرة المطاوعة على الوادي المساء بنور
النهار ، فتهلل وجهه وشعر بلذّة روحية تعانق نفسه وطمانينة مستعذبة
فذاك عواطفه ، فالحجرة الضيقة لم تسجن غير جسده ، افتأ نفسه فكانت
حرّة تتوَّج مع النسيم بين الطلوع والمروج ، وأيدي الرهبان التي
ألمت أعضائه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء
لا تعذبه الاضطهادات اذا كان عادلاً ، ولا تنفيه المظالم اذا كان بجانب

الحقّ ، فسقراط شرب السمّ مبتسماً ، وبولس رجم فارحاً . ولكن
هو الضمير الحقّي نخافه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا .

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحدهما ، فجاءت امه الى الدبر مستعينة
بعضاها ، وتراحت على قدمي الرئيس تذرف الدموع وتقبل يديه ليرحم
ابنها ويغفر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كما توقع
عن العالميات : « نحن نغفر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكن للدبر
حقوقاً مقدسة لا بد من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلات
الناس ، امّا الشياخ العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه
ويرنعون زرعهم . » فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها
المتجعدتين بأيدي الشيخوخة ، ثم نزعَت قلادة فضية من عنقها ووضعتها
في يده قائلة : « ليس لديّ غير هذه القلادة يا ابتاه ، فهي عطية والدتي
يوم افتراضي ، فليقبلها الدبر كفقارة عن ذنوب وحيدي . » فأخذ الرئيس
القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبل يديه شكراً
وامتناناً : « ويل لهذا الجيل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح
الابناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي ابنتها المرأة الصالحة
وحاصلي من أجل ابنك المجنون لتشفه السماء وتعيد اليه جوابه . »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء امام عجلوله بجانب امه المتحنّة
على عصاها فحت انتقال السنين ، وابتا بلغ الكوخ قاد العجول الى
معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل اضطلال نور النهار ،
وبعد غنية سمع والده يمس في أذن امه هذه الكلمات : « كم
عارضتني يا سارة عندما كنت أقول لك ان ولدنا محتلّ الشعور ،

والآن أراك لا تعترضين لأن أعماله قد حققت كلامي ، ورئيس الديور
الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين .
وظلّ يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتبددة متلوّنة
بأشعة الشمس .

٢

جاء عيد الفصح وتبدّل الانقطاع عن المسآكل بالكثارة من
المشروبات ، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في
مدينة بشري كصرح امير قائم بين أكواخ الرعايا . وكان القوم
يترقبون قدوم أحد الاساقفة ، لتكريسه وتقديس مذابحه ، ولما
شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطريق وأدخلوه المدينة بسين
تهليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج وحنين الأجراس
والنواقيس ، ولما ترجل عن فرسه المنزدة بالسرّج المزركش واللباس
الفضي ، قابله الأئمة والزعماء مستطاب الكلام ، مترحّين به بالقصائد
والأنشيد المصدّرة بالمديح والمديّلة بالتبجيل ، حتى إذا ما بلغ الهيكل
الجديد ارتدى الملابس الطبريّة الموشّاة بالذهب وأبس الساج المرصّع
بالجواهر ، وتقلّد عصا الرعايا المصّقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة
وحطاف حول الهيكل منفصّلاً مع الكهنة الصلوات والتقاسيم ، وفد
تصاعدت حوله روائح البخور الطيّبة ، وشعشت الشموع الكثيرة ،
وكان يوحنا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق
مرتفع يتأمل بعينه الجزيتين هذا المشهد ، وينتهد بمرارة ويتأوّه

بعضات موجهة اذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريصة مطرزة وأوالي ذهبيّة مرصّعة ، ومباخر ومشاعل فضيّة ثينة ، ومن الأخرى جباة من الفقراء والمساكين الذين اتوا من القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة توتدي القطيفة والاطالس ، ومن الأخرى تعاسة تلتف بالأطمار البالية . وهنا فئة قويّة غنيّة تمثل الدين بالتنعيم والتعزيم ، وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلي بسكينة هامساً في مسامع الأثيو تهديدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة . هنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدي ، وهناك رؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ، ربّانها الموت وقد كسرت الأمواج دفتها ، ومزقت الرياح شراعها ، فأمسّت في عبوط وصمود ، بين غضب اللجة وهول العاصفة . هنا الاستبداد القاسي ، وهناك الخضوع الأعمى . فأينما كان مولداً للآخر ؟ هل الاستبداد شجرة قويّة لا تنبت في غير التربة المنخفضة ، أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الاشواك ؟

هذه التأمّلات الاليمّة وهذه الافكار المعدّية كان يوحنا مشغولاً وقد بكلّ زنديه على صدره كأنّ حجرته قد ضاقت عن أنفاسه فيناف ان يتمزّق صدره حناجر ومنافذ . حتى اذا ما انتهت حفلة التكريس وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق ، شعر بأنّ في اخواه روحاً تنتدبه واعظاً عنها ، وفي المجموع قويّة تحرك روحه وتوقفه خطيباً

امام السماء والأرض. أسر ارادته فتقدم الى طرف الرواق ورفع
عينيه وأشار بيده نحو العلاء، وبصوت عظيم يستدعي السامع ويستوقف
النواظر صرخ قائلاً :

ه انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى .
انظر من وراء القبة الزرقاء الى هذه الأرض التي لبست بالأمس من
عناصرها رداء . انظر ايها الحارث الامين ، فقد خنقت اشواك الوعر
أعناق الزهور التي انعشت بذورها بهرق جبينك . انظر ايها الراعي
الصالح ، فقد نهشت محالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته
على منكبيك . انظر فدمائك الزكية قد غارت في بطن الارض ،
ودموعك السخينة قد جفت في فلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قد
تضععت امام رياح الصحراء ، وأصبح هذا الحقل الذي قدسته قدمك
ساحة قتال تسحق فيها حوافر الافواض ضلوع المنطرحين ، ونستوع
أكف الظالمين أرواح الضعفاء . . . ان صراخ البائسين المتصاعد من
جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون بأسماك على العروش ، ونواح
المحزونين لا تبه آذان المتكلمين بتماليك فوق المنابر ، فأحرف
التي بعثتها من اجل كلمة الحياة قد انقلب كواسر تمزق بأنيابها أجنده
أحرف التي ضممتها بذراعيك ، وكلمة الحياة التي انزلتها من صدر الله
قد توارت في بطون الكتب وانام مقامها ضجيج تخيف ترقد من هول
النفوس . لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسماهم كنائس ومعابد كسوها
بالحبر المنسوج والذهب المذروب ، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء
غارية في الأزقة الباردة ، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولحيب

الشروع ، وتركوا بطون المؤمنين بالوهيتك خالية من الحطب ، وأفسحوا
 الهواء بالتراتبيل والتساييح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتوسيدات الارامل .
 تعال ثانية يا يسوع الحلي واخرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها
 مغاور تتلوغى فيها أفاعي روعهم واحتياهم . تعال وحاسب هؤلاء
 القباصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله . تعال وانظر الكرامة
 التي غرسها بينك ، فقد أكلت جذوعها الديدان ، وسحقت عناقيدها
 أقدام ابن السبيل . تعال وانظر الذين اتهمتهم على السلام ، فقد انقسموا
 على ذواتهم وتخاصموا وتخابروا ، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا
 المحزونة وقلوبنا المضنكة . . . في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون
 أصواتهم بحسرة قائلين : اجسد الله في العرلى وعلى الأرض السلام
 وبالناس المسرة . فهل يتبعك ابوك الساوي بأن تلفظ اسمه الشفاء
 الابنية والالسة الكاذبة ؟ وهل على الأرض سلام وأبناء الشقاء في
 الخقول يفنون فواهم أمام وجه الشمس ليطلعوا قسم القوي ويأثروا
 جوف الظالم ؟ وهل بالناس مسرة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة
 الى الموت نظرة المغلوب الى المنقذ . ما هو السلام يا يسوع الخلو ؟
 هل هو في أعين الاطفال المتكئين على صدور الامهات الجائعات في
 المنازل المظلمة الباردة ؟ أم في أجناس المعوزين النائمين على أسرة
 حجرية يضمنون القوت الذي يرمي به قفس البير الى خنازيرهم المستنة
 ولا يحصلون عليه ؟ ما هي المسرة يا يسوع الجميل أبان يشتري الامير
 بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، وبأن نسكت ونبقى
 عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلعان ذهب أوسنتهم

ويريق حجارته وأطالس ملابسهم ، أم بأن تصرخ متظلمين منددين
 فيبعثوا الينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتسحق
 أجساد نساءنا وصغارنا وتسكر الأرض من مجاري دمائنا ؟ . . أمدد
 يدك يا يسوع القوي وارحمنا لأن يد الظلوم قوية علينا ، أو أرسل
 الموت ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفوفين بظل صليبك الى
 ساعة مجيئك الثاني لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هي ظلمة تتساقط
 فيها الأشباح الشريرة ، وواد تدب في جوانبه الثعابين المضيضة . ولا
 الايام أيام عندنا ، بل هي أسياف سنية يخفيها الليل بين خلف مضاجعنا
 ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا بحبة البقاء الى الحقول .
 ترأف يا يسوع على هذه الجموع المنضمة باسمك في يوم قيامتك من
 بين الاموات وارحم ذلهم وضعفهم . »

كان يوحنا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن راض
 ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو يتكلم عنا
 أمام السماء لأننا مظلومون . وذا يقول : هو مسكون يتكلم
 بلسان روح شريرة . وذاك يقول : لم نسمع قط مثل هذا المذيان
 من آبائنا وجدودنا ولا نريد ان نسمعه الآن . وآخر يهمس في أذن
 قريبه : أحسست بقشعريرة سحرية تهز قلبي في داخلي عندما سمعت
 صوته ، فهو يتكلم بقوة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء
 أعرف منا باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم .

وبينا هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتألف كهدير الامواج
 ثم تضيع في الهواء ، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة

فقدوه الى دار الحاكم ، ولما استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكر
ان يسوع كان سكوتاً امام مضطهديه ، فأزروه الى سجن مظلم حيث
نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجري .

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم بجنون
وحبده قائلاً : « ظالمنا سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلم
عن أشياء غريبة لا حقيقة لها ، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بالفاظ
مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة بأصوات مخيفة تقارن نعاذيم العرافين
المشعوذين . سل فتيان الحلي يا سيدي فقد جالسوه وعرفوا التجذبات
عافلته الى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلم جاءت
أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم . سل أمه فهي أدرى الناس
بأنسلاخ نفسه عن المدارك الحسية ، فقد شاعده مرّات ناظراً الى الأفق
بعبتين زجاجيتين جامدتين وسمعه متكئاً يشغف عن الأشجار والجداول
والزهور والنجوم ، مثلما تتكلم الأطفال عن صفائر الأمور . سل
رهبان الدير فقد خاصهم بالأمس محتقراً تنسكهم وتعبدهم ، كافرين
بقداسة معيشتهم . وهو مجنون يا سيدي ، ولكنه شقوق عليّ وعلى
أمه ، فهو يعولنا في أيام الشيخوخة ويدرف عرق جبينه من أجل
الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، واغتفر جنونه
باعتبارك حنو الوالدين . »

أخرج عن يوحنا ، وشاع في تلك النواحي جنونه ، فكان الفتيان
يذكرونه ساخرين بأقواله ، والصبايا ينظرن اليه بأعين آسفة قائلات :
للساء شؤون غريبة في الانسان ، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين

جمال الوجه واختلال الشعور ، وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة
وظلمة نفسه المريضة .

بين تلك المروج والروابي الموشاة بالأعشاب والزهور ، كان
يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرقة عن متاعب ابن آدم بطيب الموعى ،
وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنشرة على كتفي الوادي
مردداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة -- انتم كنار وأنا وحدي ،
فقولوا عني ما شئتم ، وافعلوا بي ما أردتم ، فالذئاب تقوس النعجة
في ظلمة الليل ، ولكن آثار دماها تبقى على حصباء الوادي حتى
يجيء الفجر وتطلع الشمس .

الأرواحُ المتمرِّدة

الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي
سكب اسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت
شعلة عواطفني ارفع هذا الكتاب .

جبران

وردة الهاني

١

ما أتعس الرجل الذي يحب صبيّة من بين الصبايا ويتخذها رفيقة
لحياته ، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه ، ويضع بين كفيها
نار أنفاسه وغلّة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول
ابتغائه بمجاهدة الايام وسهر الليالي قد أعطي مجاناً لرجل آخر ليستمتع
بكنوناته ويسعد بسرّاته بحبته .

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشيبه فتجد ذاتها في منزل
رجل يغمرها بأمواله وعطاياه ، ويسرّبها بالتكريم والمؤانسة ، لكنه
لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحب المحيية ، ولا يستطيع ان يشبع
روحها من الحشرة السماريّة التي يسكنها الله من عيني الرجل في قلب
المرأة .

عرفت وشيد بك نعيان منذ حدثتي . وهو رجل لبناني الأصل ،
بيروقي المولد والدار ، متحضر من أسرة قديمة غنية موصوفة بالحفاضة
على ذكر الانحاد الغابرة ، فكان مولماً بسرد الحوادث التي تبين نبالة

آبائه وجدوده ، منهماً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم في العادات والازياء الغربية المرغوفة كأمراب الطيور في فضاء الشرق .

وكان رشيد بك طيب القلب كريم الاخلاق ، لكنه كالكثيرين من سكان سوريا ، لا ينظر الى ما وراء الاشياء ، بل الى الظاهر منها . ولا يصغي الى نعمة نفسه بل يشغل عواطفه باستماع الاصوات التي يحدنها محيطه . ويلهي أُمياله ببهرجة المربعات التي تعمي البصرة عن اسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحظة الملهذات الوقتية . وكان من أولئك الرجال الذين يتسرعون بإظهار محبتهم أو مقبهم للناس والأشياء ، ثم يتدمون على فسرعهم بعد فوات الوقت ، عندما تعير النداءة بحجة السخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران .

هذه هي الصفات والاخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقتزن بالسيدة وردة الهاني قبل أن تضم نفسها فيه في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة الزوجية نعيماً .

غبت عن بيوت بضعة أعوام ، ولما رجعت اليها ، ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد ، مكمد اللون ، تقايل على سحته المنقبضة أشباح الاحزان وتنبعث من عينيه الحزنتين نظرات موحمة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره . وبعيد ان يحث في محيطه ولم أجده أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً : ما أصابك ايها

الرجل وابن تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشماع من وجهك ؟
وأين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقاً شيبتك ؟ هل فصل الموت
بينك وبين صديق عزيز ، أم سلبتك الليالي السوداء مالا جمعه
في الايام البيضاء ؟ قل لي بحق الصداقة ما هذه الكتابة المعانقة نفسك ،
وهذا النحول المالك جسدك ؟

فنظر اليّ نظرة منأسف أروثة الذكرى رسوم ايام جميلة ثم حجبها .
وبصوت تنوَّج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال : اذا فقد المرء
صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الاصدقاء الكثيرين فيتصبّر ويتعزّى ،
واذا خسر الانسان مبالاً وفكّر قليلاً رأى النشاط الذي أتى بالمال
سيأتي بثله فينسى ويسلو . ولكن اذا أخاع الرجل راحة قلبه فأين
يجدها وهم يستعيض عنها ؟ يمد الموت يده ويضعك بشدة فتوجع
ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتى تشعر بلامس أصابع الحياة فتبتسم
وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ، ويحدّق بك بأعين مستديرة
خفية ويقبض على عنقك بأظفار محدّدة ويطرحك بقاوة على التراب
ويدوسك بأقدامه الجديديّة ويذهب ضاحكاً ، ثم لا يلبث ان يعود
اليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكفّه الحريوية وينغني لك نشيد الامل
فيطربك . مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع خيالات الليل
تضلل أمامك بهيمي الصباح ، وأنت شاعر بعزيمتك منسك بأمالك .
ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبّه وتطمعه حبسات قلبك
وتسقيه نور احداك ، وتحمل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشاً ، وبينما
أنت تنظر الى طائرِكَ وتفرّ ريشه بشماع نفسك ، اذا به قد فرّ من

بين يديك وطار حتى حطّ فوق السحاب ، ثم هبط نحو قفص آخر وما
من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل اذ ذلك ايها الرجل ؟ قل لي ماذا
تفعل وأين تجد الضرب والسلوان ، وكيف تحيي الآمال والأمان ؟

لفظ رشيد بك الكلمات الاخيرة بصوت مخنوق متوجع ووقف
على قدميه مرتجفاً كقصبه في مهبّ الريح ، ومدّ يديه الى الامام كأنه
يريد ان يقبض بأصابعه المعرجة على شيء ليس له إرباً إرباً ، وقد
نصاعد الدم الى وجهه وصبغ بشرته المتجعّدة بلون قاتم ، وكبرت
عيناها وجمدت أجنانه وحدق دقيقة كأنه رأى أمامه غفيراً قد انبثق
من العدم وجاء ليميته ، ثم نظر الىّ وقد تغيرت ملامحه بسرعة
وتحوّل الغضب والحرق في جسده المهزول الى التوجّع والالم وقال
باكياً : هي المرأة - المرأة التي انقضت من عبودية الفقر ، وفقدت
أمامها نوازني وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلي
الثمينة ، والمركبات الفضة والحيل المطهّمة - المرأة التي أحبها
قلبي وسكب على قدميها عواطفه ، ومالت اليها نفسي فقمرتها بالمواساة
والعنايا - المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً
أميناً قد خانتني وغادرتني ، وذهبت الى بيت رجل آخر لتعيش معه
في ظلال الفقر ، وتشاركه يأكل الحين المعجون بالعار ، وشرب الماء
المزوج بالذل والعيب - المرأة التي أحببتها - الطائر الجبيل الذي
أطعمته حبات قلبي وسقىته نور حدقتي ، وجعلت خلوعي له قفصاً
ومهجتي عشاً ، قد فرّ من بين يديّ وطار الى قفص آخر محبوك من
قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ، ويشرب من جوانبه السم

والعلقم - الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبتي وانعطافي ،
قد انقلب شيطاناً خيفاً وعبط الى الظلمة ليتعذب بآلامه ويمدني
بجرمته .

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد ان يحمي
نفسه من نفسه ثم تنهد قائلاً : هذا كل ما أقدر ان أقوله فلا تسألني
أكثر من ذلك ، ولا تجعل لمصيدي صوتاً صارخاً ، بل دعها مصيبة
خرساء لعلها تنمو بالسكينة فتسببني وترجيحني . فقامت من مكاني والدموع
تراود أجناني والشفقة تسحق قلبي . ثم ودعته ساكتاً لأنني لم أجد في
الكلام معنى يمزّي قلبه الجريح ، ولا في الحكمة شملة تنير نفسه
المظلمة .

بعد أيام التقيت لأول مرة بالسيدة وردة الهاني في بيت صغير محاط
بالزهور والأشجار . وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك
نعمان ، ذلك الرجل الذي دأست قلبه وتركته مبتأ بين حرافر الحياة .
ولما رأيت عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوتها الرخيمة ، قلت في
ذاتي : أنقدر هذه المرأة ان تكون شريرة ؟ وهل بإمكان هذا الوجه
الشفاف ان يستور نفساً شنيعة وقلباً مجرماً ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة ؟
أهذه هي المرأة التي جنبت عليها مرآت عديدة بتصويرها لفكري
كثيمان مخيف مخنّب في جسم طائر بديع الشكل ؟ ولكنني رجحت
وهستت في سرّي قائلاً : اذن أي شيء جعل ذلك الرجل نفساً اذا لم
يكن هذا الوجه الجميل ؟ او لم نسع ونر ان المحاسن الظاهرة كانت
سبباً لمصائب خفية هائلة وأحزان عميقة أليمة ؟ اوليس القمر الذي
يسكب في قرائع الشعراء شاعراً هو القمر الذي يهيج سكينه البحار
بالمد والجور ؟

جلست وجلست السيدة وردة وكأنها قد سمعتني مفكراً فلم ترد
ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها
البيضاء ، وبصوت يحاكي نغمة الناي رقتة قالت : لم أنتق بك قبل
الآن ايها الرجل ، ولكنني سمعت حدى أفكارك وأحلامك من أفواه
الناس فمررتك شقوقاً على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً

يعواطفها وميوها . من أجل ذلك أريد ان أبسط لك قلبي واقترح
أمامك صدري ، لأرى محبتك ونخب الناس ان شئت بأن وردة الهاني
لم تكن قط امرأة خائفة شريفة . . .

كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر الى رشيد
بك نعمان ، وكان هو اذ ذاك قريباً من الأربعين ، فشفق بي ومال
اليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله
الفخم بين خدامه الكثرين ، فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي
ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان يعرضني كحفلة غريبة في
منازل أصدقائه ومعارفه ، ويتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما
يرى عيون أتابه ناظرة اليّ بإعجاب واستحسان ، ويرفع رأسه تيهاً
رافتخاراً اذ يسمع نداء أصحابه يتكلمون عني بالاطراء والمودة .
ولكنه لم يكن يسمع قول السائل : أهذه زوجة رشيد بك أم هي
حيّة نبتاها ؟ وقول الآخر : لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب
لكان بكره أكبر سنّاً من وردة الهاني .

جرت كل ذلك قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق ،
وقبل ان توفد الآلهة شعة المحبة في قلبي ، وقبل ان تنبت بذور
الوطف والأميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت
أحسب مناهي السعادة في ثوب جميل يزّين قامتي ، ومركبة فضية
تجرتني ، ورياش ثينة تحيط بي . ولكن عندما استيقظت - عندما
استيقظت وفتح النور أجفاني ، وشعرت بألسنة النار المقدسة تلسع
أضلعي وتحرقها ، وبالجماعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها -

عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرك فينبأ وشبالاً وتريد النهوض
 في الى سماء المحبة ، ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة
 التي قيّدت جسدي قبل ان أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك
 الشريعة - عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء ، عرفت أن سعادة
 المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحلمه ، بل بالحبة
 الذي يضم روحها الى روحه ، ويسكب عواطفها في كبده ، ويعملها
 ويعمله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلية واحدة على شقي الله -
 عندما بانّت هذه الحقيقة الباردة لصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان
 مثل لص سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت ان كل
 يوم اصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطئها الرياء بأحرف نارية ظاهرة
 على جبهتي أمام الأرض والسماء ، لأنني لم أقدر ان أحبه محبة قلبي
 لقاء كرمه ، ولا ان أمنحه انعطاف نفسي ثناً لاخلصه وصلاحه .
 وقد حاولت وباطلاً حاولت ان أعلم محبته فلم أعلم ، لأن المحبة
 هي قوة تبتدع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر ان تبتدعها . ثم صليت
 ونضرعت وباطلاً نضرعت وصليت في سكينه الليالي امام السماء
 لتولد في أعماقي عاطفة روجيه تقرّبي من الرجل الذي اختارته رفيقاً
 لي فلم تفعل السماء ، لأن المحبة تهبط على أرواحنا بإيمار من الله لا
 يطلب من البشر ، وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل
 أحسد عصفير الحقل على حرّيتها ، وبنات جنسي يحسدني على سجن .
 وكالشكلى الفاقدة وعيدها كنت أندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتلّ
 بالشريعة ، وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً .

ففي يوم من تلك الأيام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت
شاعراً أليفاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبيل الحياة ،
وبعش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الخفير . فأغضت
عيني كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي : نصيبك يا نفس ظلمة
القبور ، فلا تطعمي بالنور . ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهز جوارحي
بعذوبتها ومثلك كلتي بطهرها فأغلقت أذني وقلت : نصيبك يا نفس
صراخ المأوبة فلا تطعمي بالأغاني . . . أغضت أجناني كيلا أرى ،
وأغلقت أذني كيلا أسمع . لكن عيني ظلتا تريان ذلك الشعاع وهما
منطقتان ، وأذني تسمعان تلك النغمة وهما معلقتان ، فخفضت لأول
وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الأمير فلم يحسر ان يلتقطها
لحرفه ، ولم يقدر ان يتركها لفافته . وبكيت بكاء ظامئ رأى
النبوع العذب محاطاً بكواسر الغاب فارقى على الأرض متوقفاً
جازعاً .

وسكنت السيدة وردة دقيقة ، وقد أغضت عينيها الكبيرتين
كان ذلك الماضي قد انتصب أمامها فلم تحسر ان تحدق بي وجهاً
لوجه . ثم عادت وقالت : هؤلاء البشر الذين يجهلون من الابدية
ويعودون اليها قبل ان ينوخوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم ان
يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بإرادة
السماء ، ورجل تلتصق به بشريمة الأرض . هي مأساة أليمة مكتوبة
يدماء الانثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكاً لأنه لا يفهمها ، وان
فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة وأثزل على رأس المرأة من غضبه

ناراً وكهوتاً ، وملأ أذنيها لعناً ونجديفاً .

هي رواية موجعة مثلها الليالي السوداء بين خلوع كل امرأة لجسد
جسدها مقيّداً بضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ما هي الزيجة .
وترى روحها مرفرفة حول آخر نحب بكل ما في الروح من المحبة
وبكل ما في المحبة من الطهر والجمال . هو نزاع خفيف قد ابتدأ
منذ ظهور الضعف في المرأة والقوة في الرجل ، ولا ينتهي حتى تنتفي
ايام عبودية الضعف للقوة . هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة
وعواطف القلب المقدسة . قد طارحت بالأمس في ساحتها وكنت
أموت جزعاً وأذوب دموعاً ، لكنني وقفت وتزغت عشبي جبانة بنات
جنسي وحللت جناحي من رُبط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء
الحب والحرية ، وأنا سيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجت
شعلة واحدة من يد الله فيبدل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوة في هذا
العالم تستطيع ان تسلبني سعادتي لأنها منبتقة من عناق روجين يضمها
التفاهم ويظللها الحب .

ونظرت الى السبدة ورودة نظرة معنوية كأنها تريد ان تخبرني
صدري بعينها لترى تأثير كلامها في عواطفني وتسبح صدى صوتها من
بين ضلوعي . لكنني بقيت صامتاً كيلا أوقفها عن الكلام . فثبات
وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الحلاص والحرية :

يقول لك الناس ان ورودة الحاني امرأة خائنة جعود قد اتبعت
شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها اليد وجعلها سيدة في منزله .
ويقولون لك هي زانية عاهرة قد اتلفت بقباضها القذرة اكبليل الزواج

النفاس الذي صفرته الديانة ، واتخذت عوضاً عنه أكليلاً وسجناً محبوباً
 من أشواك الجحيم ، وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت لباس
 الآثم والعار . ويقولون لك أكثر من ذلك لأن أشباح جدودهم ما
 زالت حية في أجسادهم . فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجعون
 صدى أصوات ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله في
 مخلفاته ، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ، ولا يعلمون متى يكون
 الإنسان خاطئاً أو باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضالة الى ظواهر
 الأعمال ولا يرون أسرارها ، فيقضون بالجهل ويدينون بالعمالة ،
 ويستوي أمامهم المحرم والبريء والصالح والشرير .

قويل لمن يقضي ويويل لمن يدين . . . انا كنت زانية وخائنة في
 منزل رشيد نعمان لأنه جملني رفيقة مضيعة بمحكم العادات والتقاليد
 قبل ان تصيرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعراطف . وكنت
 دنسة ودنيئة امام نفسي وامام الله عندما كنت اشبع جوفي من
 خيرات ليشع آمياله من جسدي . أمّا الآن فصرت طاهرة نقيّة لأن
 أموس الحب قد حرّني . وصرت شريفة وأمينة لأنني ابطلت بيع
 جسدي بالخبز وأيامي بالملابس . نعم كنت زانية ومجرومة عندما كان
 الناس يحسبونني زوجة فاضلة ، واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم
 يحسبونني عاهرة دنسة لأنهم يحكمون على النفوس من مآقي الاجساد ،
 وينقيسون الروح بمقاييس المادة .

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت بيدها نحو المدينة
 ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاختقار والامتنان كأنها

رأت بين الازقة وعلى السطوح وفي الاروقة اشباح المفسد وخيالات
الاحطاط : أنظر الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفضة العالية حيث
يسكن الاغنياء والافوياء من البشر ، فبين جدرانها المكسوة بالحجر
المنسوج تقطن الحيانة بجانب الرياء ، وتحت سقفها المطاية بالذهب
المذؤوب يقيم الكذب بقرب التصنع . أنظر وتأمل جيداً هذه
البنيات التي تمثل لك المجد والسودد والسعادة ، فهي ليست سوى مغاور
يختبئ فيها الذل والشقاء والنعاسة . هي قبور مكسوة يتوارى فيها
مكر المرأة الضعيفة وراء كحل الميون واحمرار الشفاء ، وتنجب
في زواياها أفانية الرجل وحيوانيته بلعان الفضة والذهب . هي
قصور تتشامخ جدرانها تبساً وافتخاراً نحو السماء ، ولو كانت تشع
بأنفاس المكاره والنفس السائلة عليها لتشتت وتبعثوت وهبطت الى
الخبض . هي منازل ينظر اليها القروي الفقير بعينين دامعتين ، ولو علم
أنه لا يوجد في قلوب سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تلاءم صدر
رفيقه لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً .

وأمسكت السيدة ورده بيدي وقادتني الى جانب النافذة التي
كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت : تعال فأريك
خفايا هؤلاء الناس الذين لم ارض ان أكون مثلم . أنظر الى ذلك
القصر ذي الاعمدة الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية ،
ففيه يسكن رجل غني ورت ماله عن والده البخيل واكتسب اخلاقه
من جوانب الازقة الفضة بالمفسد . وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم
يعرف عنها شيئاً سوى ان لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين

لبلاء البلاد . ولم ينتقض شهر العسل حتى ملأها متضجراً وعاد الى مسامرة
 بنات الحوى ، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السكّير جرّة خمر
 فارغة ، فبكّت وتوجّعت لأوّل رحلة ، ثم تصبّرت وسلت سلو من
 عرف خطاه ، وعلمت أن دموعها هي أثّن من أن تهرق على خسارة
 رجل مثل زوجها . وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل
 الوجه حلو الحديث ، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وغلاً جيوبه
 من ذهب بعلمها الذي يغضّ الطرف عنها لأنها تغضّ الطرف عنه . . .
 ثم انظر الى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء ، فهو مسكن رجل
 ينتمي الى امرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة ، وقد انخفض
 مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف ابناءها الى التواني والكسل .
 وقد افترق هذا الرجل منذ اغوام بقناة فيحة الصورة لكنها غنيّة
 جدّاً ، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجردها واتخذ له خليله
 حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي
 الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها ، وتكصّل عينيها ، وتلوّن وجهها
 بالمساحيق والمقاقير ، وتزيّن قامتها بالاطالس والحرير ، لعلها تحظى
 بنظرة من أحد ذرائعها ، لكنها لا تحصل الا على نظرات شبحها في
 المراة . . . ثم انظر الى ذلك المنزل الكبير المزين بالنقوش والمائيل ،
 فهو منزل امرأة جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، قد مات زوجها الأوّل
 فاستأثرت بأمواله وأملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف
 الجسيم والازادة واتخذته بعلاً لتحتمي باسمه من أسنة الناس وتدافع
 بوجوده عن منكراتها . وهي الآن بين مريدها كالشعلة تمتصّ من

الزهور ما كان حلواً ولذيذاً . وانظر الى تلك الدار ذات الاروقة
 الوسيمة والقناطر البديعة ، فهي مسكن رجل مادي الاميال ، كثير
 المشاغل والمطامع ، وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن ، وكل
 ما في روحها حلو ولطيف ، وقد تآزجت في شخصها عناصر النفس
 بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برفقة المعاني ،
 فهي قد 'كوتت' لتعيش بالحب وقوت به . لكنها كالكثيرات من
 بذات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها
 ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة ، وهي الآن سقيمة الجسم تلذوب
 كالشمع بحرارة عواطفها المقيّدة ، وتضمحل على مهل كالرائحة الزكية
 أمام العاصفة ، وتفتن حباً بشيء جميل تشعر به ولا تراه ، وتصبر
 حينئذ الى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتحرر من
 عبودية رجل يصرف الايام بجمع الدنانير واللبالي بعدها ويصرّ أسنانه
 مجدّفاً على الساعة التي تزوّج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحيي
 اسمه ويورث ماله وخيراته . . . ثم انظر الى ذلك البيت المتفرد بين
 البساتين ، فهو مسكن شاعر خيالي سامي الافكار ، وروحي المذهب ،
 له زوجة غليظة العقل ، خشنة الطباع ، تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها ،
 وتستهزئ بأعماله لأنها غريبة ، وهو الآن مشغول عنها بمحبّة امرأة
 أخرى متزوجة تتوقّد ذكاه وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بانعطافها
 وتوحي اليه الأقوال الحادثة بابتساماتها ونظراتها .

وسكنت السيدة وردة هنية وقد جالست على مقعد بجانب النافذة
 كأنّ نفسها قد تعبت من التجوّل في مخادع تلك المنازل الخبيثة ، ثم

عادت تقول يهود : هذه هي القصور التي لم ارض ان اكون من
 سكانها . هذه هي القبور التي لم ارد ان ادفن حية طي لحدوها .
 هؤلاء هم الناس الذين تخاصمت من عواندهم وخلعت عني جامعتهم .
 هؤلاء هم المتزوجون الذين يقتنون بالاجساد ويتنافرون بالروح ، ولا
 تنفع بهم امام الله سوى جهلهم فاموس الله . انا لا ادينهم الآن بل
 اشفق عليهم ، ولا اكرههم بل اكره استسلامهم عضوا الى الربا
 والكذب والحياة . ولم اكشف امامك خفايا قلوبهم واسرار معيشتهم
 لأنني احب الاغتياب والنسبة ، بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم
 كنت بالأمس مثاهم فنجوت ، وأبين لك معيشة بشر يقولون عني
 كل كلمة شريرة ، لأنني خسرت صداقتهم لأربع نفسي ، وخرجت عن
 سبل خداعهم المظلمة وحاولت عيني نحو النور حيث الاخلاص والحق
 والعدل . وقد نفوني الآن من جامعتهم وانا راضية ، لأن البشر لا
 ينفون الا من قرأت روحه الكبيرة على الظلم والجور . ومن لا
 يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حراً بما في الحرية من الحق
 والواجب . انا كنت بالأمس مثل مائدة شهية ، وكان رشيد بك
 يقرب مني عندما يشعر بحاجة الى الطعام ، امسا نفسانا فتظلا
 بعبدتين كخادمين ذليلين . ولما رأيت المعرفة كرهت الاستخدام
 وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر ، لأن روحي آت
 ان اصرف العمر كله راحة امام ضم يخيف اقامته الاجيال المظلمة
 ودغته الشريرة . فكسرت قيودي لكنني لم ألقيها عني حتى سمعت
 الحب منادياً ورأيت النفس متأهبة للمسير .

فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الاسير من سجنه فأدركه
خلفي الخلى والخلل والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من
الرياش المملوء من الروح ، وأنا عالة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب ،
لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وارقي على الرماد
حاجبة رأسي بساعدي ، ساكية حشاشي من أجزائي قائلة هذا نصبي
من الحياة . ان السماء لا تريد ان اصرف العمر صارخة متوجعة في
الليالي قائلة متى يجيء الفجر ، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي
هذا النهار . ان السماء لا تريد ان يكون الانسان تمساً لأنها وضعت
في أعماقه الميل الى السعادة ، لأنه بسعادة الانسان يتجسد الله . . .

هذه هي حكايتي ايها الرجل وهذا احتياجي امام السماء والارض ،
وانا اردده وأتوسم به والناس يملقون آذانهم ولا يسمعون لأنهم يحشون
ثورة أرواحهم ، ويخافون ان تتزعزع اسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم .
هذه هي العقبة التي مرت عليها حتى بلغت قمة سعادتي ، ولو جاء
الموت واختطفني الآن لوفقت روعي أمام العرش الاعلى بلا خوف
ولا وجل ، بل بفرح وأمل ، وانخلت لفائف ضميري أمام الديان
الاعظم وبانت نقيّة كالتلج ، لأنني لم أفعل غير مشيئة النفس التي
فعلها الله عن ذاته ، ولم اتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة .

هذه هي روايتي التي يحسبها سكان بيروت لمنة في فم الحياة
وعلة في جسم الهيئة الاجتماعية . ولكنهم سوف يندمون عندما
تنبّه الايام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة ، مثلما تستنبت الشمس
الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الاموات فيقف اذ ذاك عابر

الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلاً : ههنا رقدت وردة
الهافي التي حررت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحييا
بناموس المحبة الشريفة . وحوّلت وجهها نحو الشمس كيلا ترى
ظل جسدها بين الجماجم والاشواك .

ولم تنتهِ السيدة وردة من كلامها حتى فُتح الباب ودخل علينا فتى
جميل القوام ، جميل الوجه ، تنسكب من عينيه اشعة سحرية وتسيل
على شفتيه ابتسامة لطيفة . فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه
بانعطاف كلّي وقدمته اليّ بعد ان لفظت لسي مديلاً بكلمة لطيفة
واسمه مشفوعاً بنظرة منووية ، فعرفت أنه ذلك الشاب الذي
انكرت العالم وخالف الشرائع والتقاليد من أجله .

ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه .
حتى اذا مرّت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس الى
اللا الاعلى ، نظرت اليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت
ما لم أراه قط ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت
سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الافراد المتسردين على
شرائعها قبل ان تستفحص دواعي قمرؤهم . رأيت روحاً واحدة
سناوية متمثلة امامي بحسين يحملها الشباب ويسربلها الاتحاد وقد
وقف بينهما اله الحب باسطاً جناحيه ليحميها من لوم الناس وقمقيهم .
وجدت التقام الكلّي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الاخلاص
ويحيط بهما الطهر . وجدت لأول مرة في حياتي طيف السعادة
منتصباً بين رجل وامرأة يردفهما الدين وتنبذهما الشريعة .

وبعد هزيمة وقفت وردها مظهرًا بغير الكلام تأثيرات نفسي
 وخرجت من ذلك المنزل الحفيظ الذي جعلته العواطف هيكلًا للحب
 والوفاق ، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها
 السيدة ورده مفكرًا بحديثها وبكل ما يتناوي تحته من المبادئ
 والنتائج ، لكنني لم ابلغ أطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد
 بك نعيان ، فتمثلت لبصري في لوحة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي :
 هو نفس مظلوم ولكن هل تسمه السماء اذا وفق امامها متظلمًا
 شكياً ورده الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعته
 حرية نفسها ، ام هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج
 قبل ان يستميل روحها بالحب ؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو
 المظلوم ؟ ومن هو المبرم ومن هو النهرى يا ترى ؟ ثم عدت قائلاً
 لذاتي مستقبلاً اخبار الايام مستقصياً حوادثها : كثيراً ما اباح الغرور
 للنساء ان يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء ، لأن متغف
 المرأة بدرجة الملابس ونعمومة العيش يعنى بصيرتها ويقودها الى المسار
 والخطاط . فهل كانت ورده الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت
 من قصر رجل غني مفعم بالحلى والحلل والرياش والحدم وذعبت الى
 كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صفة من الكتب القديمة ؟ وكثيراً
 ما يمت الجليل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلمها مللاً وتضجر
 وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقل
 شرفاً . فهل كانت ورده الهاني جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما
 اعلنت استقلالها على رؤوس الاشهاد وانضمت الى فتي روعي الاميال ،

وقد كان بإمكانها ان تشبع حواشيها سرّاً في منزل زوجها من هيام
الفتيان الذين يستمتعون ليكونوا عبيد جلالها وشهداء غرامها ؟ وردة
الهامي كانت امرأة نعمة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها ، وهذه هي
الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الانسانية وتنفيها الشريعة .

هبت تلك الكلمات في سامع الامير ثم قلت مستدركاً : ولكن
أيسوغ للمرأة ان تشتري سعادتها بتعاسة بعليها ؟ فأجابني نفسي قائلة :
وهل يجوز للرجل ان يستعبد عراطف زوجته ليبقى سعيداً ؟



وظللت ساثراً وصوت السيدة وردة يتنوّج في مسامعي حتى
بلغت اطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب وابتدأت
الطبول والبسانين تتشبع بتقارب السكينة والراحة ، والطبول تشد
صلاة المساء . فوقف متأملاً ثم تهتدت قائلاً : امام عرش الحرية
تفرح هذه الاشجار بداعية النسيم وامام هيبتها تبتهج بشماع الشمس
والقمر . على مسامع الحرية تتساجى هذه المصافير وحول اذنانها
ترغرف بقرب السراقي . في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطير
انفاسها وامام عينيها يتسم لمحيء الصباح . كل ما في الارض يحيا
بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمدّ بحمد الحرية وافرحتها .
اما البشر فمعمومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم الافيسة
شريعة عالمية محدودة ، وسثروا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً
واقاموا لميولهم وعراطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم

وعقوبتهم قَبيراً عميقاً مظلماً . فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن
جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرّد شرّير خَلِيق بالنفي ، وساقط
دنس يستحق الموت . . . ولكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه
الفاصلة الى انقضاء الدهر ام تحرّره الايام ليحيى بالروح وللروح ؟
أبقى الانسان محدّقاً بالتراب ام يحوّل عينيه نحو الشمس كيلا يرى
ظلّ جسمه بين الاشراك والجماهيم ؟

صراخ القبور

١

ترشح الأمير على منصة القضاء فجلس عقلاً - بلاذه عن عينه وشماله
وعلى وجوههم المتجمدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار . وانتصب
الجند حوله بمنشقين السيوف رافعين الرماح . ووقف الناس أمامه
بين متفرج اتى به حب الاستطلاع ، ومترقب ينتظر الحكم في جريمة
فريده ، وجميعهم قد أحسوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وأمسكوا أنفاسهم
كان في عيني الأمير قوة توغز الخوف وتوحي الرعب الى نفوسهم
وقلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينونة ، رفع
الأمير يده وصرخ قائلاً : أحضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً
وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم .

ففتح باب السجن وبانت جدران المظلمة مثلما تظهر حجرة الوحش
الكامر عندما يفتح فكبه مثائباً . وتصادت من جوانبه قلعة القيود
والسلاسل متألفة مع أنين الحباء والحبيبات . فحوّل الحاضرون أعينهم
وتناولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا
فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر .

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان في مكتوف

الساعدين يتكلم وجهه العابس وملاحمة المنقبضة عن عزّة في النفس
وقوّة في القلب . وارفقاه وسط المحكمة وتراجعا قليلا الى الوراء .
فحدق به الامير دقيقه ثم سأل قائلاً : ما جريرة هذا الرجل المنتصب
امامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة ؟
فأجاب رجل من اعوانه قائلاً :

هو قاتل شرير قد اعترض بالامس قائداً من فرّاد الامير وجنده
صريعاً اذ كان ذاهباً بهيمة بين انقري ، وقد قبض عليه والسيف الممد
بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده .

فتحرّك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه
وصرخ بأعلى صوته قائلاً : ارجعوه الى الظلمة واثلثوا جسده بالقبور ،
وعندما يجيء فجر القدر اخبروا عنقه بحدة سيفه ثم اطرحوا جثته في
البرية لتجرد لها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة تنانيتها الى
انوف اهلها ومحبيها .

أرجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات الامل
والتهديدات المنيعة لأنه كان فقي في وبيع العمر حسن المظاهر قوي
البنية .

وخارج الجندبان ثانية من السجن يقودان صبيّة جميلة الوجه ضيقة
الجسد قد وشح مانيها اصفرار اليأس والقنوط ، وغمرت عينيها
الدمرات وألوت عنقها الندامة والحسرة .

فنظر اليها الامير قائلاً : وما فعلت هذه المرأة المهزولة الواقعة

إيماننا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً : هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلمها ليلاً فوجدوا بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن فرأ أليفها هارباً . فحرق الأمير بها وهي مطرقة خجلاً ثم قال بشدة وقساوة : ارجعوها إلى الظلمة ومددوها على فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعبثها ، واسقوها الحبل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القيل المحرمة ، وعند مجيء الفجر جرحوها غاربة إلى خارج المدينة وارجعوها بالحجارة وأتركوا جسدها هناك لكي تتعلم بالجمانة الذئاب وتنفخ عظامه الديدان والحشرات .

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون إليها بين معجب بعدل الأمير ، ومتأسف على جمال وجهها الكثيب ورقرة نظراتها الحزنة .

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما حرقتان من أطراف ثوبه البالي ، ويلتفت جزعاً إلى كل ناحية ، ومن نظراته الموحجة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة .

فالتفت الأمير نحوه وقال بلهجة الاستعزاز : وما ذنب هذا القدر الراقف كالبيت بين الأحياء ؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً : هو لص سارق قد دخل الدير ليلاً فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا كطي أثوابه آتية مذابحهم المقدسة . فنظر إليه الأمير نظرة التنمر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلاً : انزلوه إلى اعماق الظلمة وكمبلوه بالحديد ، وعند مجيء

الفجر جروه الى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتان واتركوا
جسده معلقاً بين الارض والسماء ، فتنثر العناصر اصابعه الائمة نثراً
وتذري الرياح اعضاءه نثراً .

ارجعوا اللص الى السجن والناس همسون بعضهم في آذان بعض
قائلين : كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة ؟
وتزل الامير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمشرعون وسار
الجند خلفه وامامه وتبدد شمل المتفرجين ، وخلا ذلك المكان الا من
عويل المسجونين وزفرات القانطين المتألمة كالحالات على الجدران .

جرى كل ذلك وانا واقف هناك وقوف المرأة امام الاشباح
السائفة ، مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملاً بما يحسبه
الناس عدلاً ، متعمقاً بأسرار الحياة ، باحثاً عن معنى الكيان . حتى
اذا ما تضععت افكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب
خرجت من ذاك المكان قائلاً لذاتي : الاعشاب تقتصّ عناصر التراب .
والحروف يلتهم الاعشاب . والذئب يفتوس الحروف . ووحيد القرن
يقتل الذئب . والاسد يصيد وحيد القرن . والموت يفني الاسد . فهل
توجد قوّة تغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً ؟
اتوجد قوّة تحوّل جميع هذه الاسباب الكريهة الى نتائج جميلة ؟
اتوجد قوّة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضبطها الى ذاتها
منسمة مثلما يُوجع البحر جميع السواقي الى اعماقه متوئماً ؟ اتوجد
قوّة توقف القاتل والمقتول ، والزانية وخايلها ، والسارق والمسروق
منه امام محكمة اسمى واعلى من محكمة الامير ؟

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث
 تبيع السكينة للنفس ما تسره النفس ، وميت طهر الفضاء جرائم
 البأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة . ولما
 بلغت طرف الوادي التفت فاذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان
 والنسور تتطاير نارة وتهبط طوراً ، وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيورها
 وحفيف أجنحتها . فتقدمت قليلاً مستطلعاً فرأيت أمامي جثة رجل
 معلقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة
 التي رجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المبحولة بالتراب وقد فصل
 رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ، ونظرت فلم
 أر سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطخة بالدماء .
 واصلت فلم أسمع غير عويل العدم ممزجاً بنعاب الغربان الحائمة حول
 فريسة شرائع البشر .

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالامس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم
 في قبضة الموت .

ثلاثة أساءوا بعرف البشر الى الناموس فمدت الشريعة العياء
 بندها وسحقتهم بقساوة .

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة امواتاً

لأنها قوية .

رجل فتك رجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم ، وعندما فتك به الامير قال الناس : هذا امير عادل .

ورجل حاول ان يسلب الدين فقال الناس هذا لص شرير ، وعندما سلبه الامير حياته قالوا : هذا امير فاضل .

وامرأة خانت زوجها فقال الناس هي زانية عاهرة . ولكن عندما سبها الامير عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا : هذا امير شريف .

سفك الدماء محرّم ، ولكن من حمله للأمير ؟

سلب الاموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الارواح فضيلة ؟

خيانة النساء قبيحة ، ولكن من صيّر رجم الاجساد جميلاً ؟

أنتقابل الشر بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة . ونقاتل الفساد بفساد اعظم ونهتف هذا هو الناموس . ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل ؟

أما صرع الامير عدوّاً في غابر حياته ؟ أما سلب ، الا او عقاراً من احد تابعيه الضعفاء ؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات فجاز له اعدام القاتل وشتى السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة ! أملائكة نزلوا من السماء ام رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل اليه أيديهم ؟ ومن قطع رأس هذا القاتل ! أنبياء هبطوا من السماء ام جنود

يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلوا ؟

ومن رجم هذه الزانية ! أنساك طاهرون أتوا من صوامعهم أم
بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل محتبئين بستانر الظلام ؟

الشريعة - وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من
أعماق السماء ؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟
وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس فائلين : أحرموا
الضعفاء نور الحياة ، واغنوا الساقطين بحدة السيف ، ودوسوا الخطاة
بأقدام من حديد ؟

وظللت هذه الأفكار تتراحم على فكري وتتاهم عواطفني حتى
سمعت وطء أقدام قريبة مني ، فنظرت وإذا بصيئة قد ظهرت من بين
الأشجار وافتربت من الجثث الثلاث متحدرة متلفسة بخوف إلى كل
ناحية . حتى إذا ما رأت رأس الفتي المقطوع صرخت جزعاً وركعت
بجانبيه وطوقته بزنديا المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ،
وتلامس شعرة الجعدي بأطراف أظفارها وتنحجب بصوت عقيق خارج
خارج من صميم الكبد ، ولما نهكها البكاء وغلبتها الحشرات ، أسرعت
تخفر التراب بيديها ، حتى إذا ما حفرت قبراً وسيعاً جرّت إليه الفتي
النصرع ومددته على مهل ووضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه ،
وبعد أن غمرت به التراب غرست فصل السيف الذي قطع عنقه على
فبره ، واذ هيئت بالانصراف ، تقدمت نحوها فأجفلت وارتعشت
خوفاً ثم أطرقت والدمع السفين يتساقط كالطر من مقلتيها وقالت
متنبهة : اشكني إلى الأمير ان شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن

خلّصني من قبضة العار من أن أترك جسده طعاماً لقشاعم الطير
والوحوش الكواسر . فأجبتها قائلاً : لا تخافي مني أيتها المسكينة ،
فأنا قد نديت حظ فتاك قبلك ، بل خبريني كيف أنقذك من قبضة
العار .

فقالت والعص تقطع صرتها : جاء قائد الأمير الى حقولنا لبتقاضي
الضرائب ويجمع الجزية ، ولما رأي نظري نظرة استحسان مخيفة ، ثم
فرض ضريبة باهظة على حقول والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها ،
فقبض عليّ ليقناني فهرأ الى صرح الأمير بدلاً من الذهب ، فاسترحمت
بدموعي فلم يحفل ، واستغلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم ، فصرخت
مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيب وخلصني من بين
يديه القاسيتين ، فاستشاط غضباً وهمّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتنق
سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي ،
ولكبر نفسه لم يفرّ هارباً كالقتلة المجرمين ، بل لبث واقفاً بقرب
جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وسافروه الى السجن مكبلاً بالقيود .
قالت هذا ، ونظرت اليّ نظرة تذيب الفؤاد وتشير الشجون
وراءت مسرعة ورنات صوتها الموجهة تولد بين ثوئجات الاثير اهتزازاً
وارتعاشاً .

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم سائراً ووجهه
بأثوابه ، حتى اذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عبائه
وستر بها أعضاء العارية ، وأخذ يحفر الارض بختنجر كان معه ثم حملها
بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كل حفنة فطرة من أجفانه . ولما

انتهى من عمله حتى بعض الزهور الثابتة هناك ووضعها على القبر منجني
الرأس منخفض الطرف . وإذ هم بالذهاب أوقفته قائلاً : ما نسبة
هذه المرأة الساقطة إليك حتى سعت مخالفاً إرادة الأمير ومخاطراً
بجياتك لكي تحمي جسدها المروض من طيور السماء الجوارح ؟

فنظر اليّ وأجفانه المفرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدة حزنه
ولوعته ، وبصوت مخنوق ترافقه التنييدات الاليمية قال : أنا هو ذلك
الرجل النعس الذي رُجمت من أجله - أحببتها وأحبتي منذ كنتما
صغيرين تلعب بين المنازل . فوفاً ونا الحب معنا حتى صار سيداً قوياً
تخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا إليه ونهايه بسرائر روحينا فيضمننا إلى
صدره .

ففي يوم وقيد كنت غائباً عن المدينة زوجته والدها كرهاً من
رجل تكرهه ، ولما رجعت وسمعت بالخبير تحوّلت أيامي إلى ليل طويلة
حالك ، وصارت حياتي نزاعاً مرّاً متواصلاً . وبقيت أصارع عواطفني
وأغالب ميول نفسي حتى تغلبت عليّ وقادّتي مثلما يقوده البصير
ضرباً أعشى . فذهبت إلى حبيبتي سرّاً ، وأقضى مرامي أن أرى نور
عينها وأسمع نغمة صوته ، فوجدتها منفردة تندب حظها وتؤثي أيامها .
فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا . ولم تمرّ ساعة حتى دخل
زوجها فجأة ، ولما رأي أني أوعزت إليه نسيانته القذرة فقبض على عنقها
الأمس بكفبه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته : تعالوا وانظروا الزانية
وعشيقها . فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطعين الخبير فاسلمها إلى
أيديهم الحشنة فافتادوها محلولة الشعر ممزقة الاثواب . أما أنا فلم يمسي

أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة اذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه .

وعاد الشاب نحو المدينة سائراً وجهه بأثوابه ولبتت أنا ناظراً متأملاً متنهداً ، رجلة اللص المشنوق ترتجف قليلاً كلما هزّ الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحراكها أرواح الفضاء لتبهط وتنددها على صدر الأرض بجانب قتيل المروعة وشهيدة الحب .

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشنوق تفرع صدرها باكياً ، ثم تسلمت الشجرة وقضت جبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبرين ووضعت فيه . وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعيتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما انحوت نحو الوجهة التي جاءت منها ارفقتها قائلاً : ما غرّك ايها المرأة فجئت تدفين لصاً سارقاً ؟

فنظرت اليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت : هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي . خمسة اطفال يتضورون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم . . . لم يكن زوجي لصاً بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان الا على رغيء تقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى الصباح . . .

مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بسائنه . ولما ضعف وانتهت أعوام العمل قواه وراودت

الامراض جسده أبعدوه قائلين : لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب الآن وعندما يشب أبناءك أبغضهم الينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل . فبكى وأبكائي واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعلى "وعلي" صغارنا العراة الجائعين . فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لأن سكان تلك القصور لا يستخدمون الا "الفتيان الأقوياء" . ثم جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس اليه بل كانوا يرون به قائلين : الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل .

ففي ليلة ، وفد برج العوز بنا حتى صار أطفالنا يتناولون جوعاً على التراب ، والرضيع بينهم يموت شهيداً ولا يجد لبناً ، تغيرت ملامح زوجي وذعب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يوزن الرهبان غلة الحقل وخمر الكروم ، وحمل زنببلاً من الدقيق على ظهره وهم بالرجوع الينا . لكنه لم يسر بضغطة خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً ، وعندما جاء الصباح أسلوه الى الجند قائلين : هو اخص شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية . فاقناده الجند الى السجن ثم الى المشقة لسلأوا أجواف العقبان من جسده لأنه حاول ان يثأر أجواف صغاره الجياع من فضلات الغلة التي جناها بأثوابه اذ كان خادماً للدير . وذهبت المرأة الفقيرة والكلامها المنقطع أشباح محزنة تنصاع وتنتسرع الى كل فاحشة كأنها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء .

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤثّر ارتج عليه وانعقد لسانه
لوعة ، فانسكب دمه متكلماً عن عواطفه . وحاولت التفكير والتأمل
فعميت نفسي ، لأن النفس كالزهرة تضم أوراقها أمام الظلمة ، ولا
تعطي أنفاسها لحالات الليل .

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلم انبثاق
الضباب من تخالبا الاردية ، ويتوَّج حول مسامعي ليوحى الى الكلام .
وقفت ساكتاً ، ولو فهم الناس ما نقوله السكينة لكانوا أقرب
الى الآلة منهم الى كواسر الغاب .

وقفت متهدأ ، ولو لامست شعلات تنهداتي أشجار ذلك الحقل
لتعركت وتوكت أماكنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها
الأمير وجنوده ، وهدمت يجذوعها جذران الدبر على رؤوس رهبانه .
وقفت ناظراً ، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن
على جوانب تلك القبور الجديدة - قهر فتى دافع بحياته عن شرف
عذراء ضعيفة وأنتقدها من بين أظفار ذئب كاسر ، ففقطعوا عنقه جزاء
شجاعته ، وقد أعيدت تلك الصبيّة سيفه بتراب قبره ليبقى هناك
رمزاً يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الخيف
والقبارة .

وقبر صبيّة لامس الحب نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها ،
فرجمت لأن قلبها ابى الا أن يكون أميناً حتى الموت . وقد وضع
جيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بنحوها وفنائها

البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعتهم المادة
وأخرسهم الجهل .

وقبر فقير بأثنى أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان
ليستعوضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الحبز لصغاره بالعمل فلم يجده ،
ثم رجاه بالتسول فلم يذله ، وعندما دفعه اليأس الى استرجاع قليل
من الغلة التي جمعها بأثعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفكوا به .
وقد وضعت أرملة صلياً على قبره ليستشهد في سكينه الليل نجوم
السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري الى سيوف يقطعون بها
الرقاب ويمزقون بحدودها السنين أجساد المساكين والضعفاء .

وتوارت الشمس إذ ذاك وراء الشفق كأنها ملئت متاعب البشر
وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظل والسكون
نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة ، فرفعت عيني الى العلاء وبسطت
يدي نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي : هذا هو
سيفك أيتها الشجاعة فقد أغمد بالتراب . وهذه هي زهورك أيتها الحب
فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته
ظلمة الليل .

مضجع العروس

خرج العريس والعروس من الميكل يتبعها المهنئون الفارحون
وتقدمهما الشموع والمصابيح . ويسير حولهما الغنيان المترفون بالاهازيج
والصبايا المنشدات أغاني السرور .

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش السينة والاواني المتلصقة
والرياحين المطرة قاعلى العروسان متعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على
البنافس الخيرية والكراسي المصنوعة حتى غصت تلك القاعة الوسيعة
بأشكال الناس . وسعى الخدام بآنية الشراب فصاعدت رتانات
الكؤوس متألقة مع هتاف الغبطة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا
يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بأنغامهم المنسوجة
مع همس أوتار العود وتنبهت الناس وحفيف الدفوف .

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطع اللحن مثلاً
تتابع الاغصان اللينة بحاري هبوب النسيم وتثني طيات أثوابهن الناعمة
كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر . فشخصت اليهن الابصار
وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح القيان وتفتطرت لجمالهن مراراً

• هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الاخير من الجيل التاسع عشر وقد اخبرني
بها سيدة فاضلة من تلك النواحي تنسب الى احد اشخاص الحكاية .

الشيوخ . ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغفرون أميالهم
 بالحيور . فتمت الحركة وعلت الاصوات وسادت الحرية وتوارت الرزاة
 وتضعفت الادمغة وتلبت النفوس واضطربت القلوب واصبح ذلك
 المنزل بكل ما فيه كقنبلة مقلعة الاوتر في يد جنية غير منظورة
 تضرب عليها بعنف وتولد منها انعاماً جامعة بين التناسق والالتباس :
 فهنا فتى ييوج بسرائر حبه لفتاة اولاهها الجمال تينها ودلالاً . وهناك شاب
 يستعد لمحادثة حسناء مستحضراً الى حافظته أعذب الالفاظ وأرق
 المعاني . وهناك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلحاجة
 الى المشدين إعادة اغنية ذكرته بأيام صباهه . في هذه القرنة امرأة تغامر
 بأطراف اجفانها وجللاً ينظر بمودة الى سواها . وفي تلك الزاوية سيدة
 قد يبض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتتقي منهن عروسه
 لوحدها . وبجانب تلك الناقذة زوجة قد اتخذت سكر حليها فرحة فاقتربت
 من خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الحمر والغزل مستسلمون الى تيار
 الغبطة والسرور متناسون حوادث الامس متصرفون عن مآتي الغد
 منمكفون على استئثار دقائق الحاضر .

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كشيتين الى
 هذا المشهد مثلما ينظر الاسير اليأس الى جدران سجنه السوداء .
 وتلفت بين الآونة والاخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس
 فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس الممتطعين انفراد الطائر
 الجريح عن سربه ، مبكلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه
 والفرار ، محدقاً بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المغنوية

قد انفصلت عن ذاته الحسية وسبغت في الخلاء متبعة أشباح الدجى .
انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة ، واختمرت
ادمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العربس من مكانه وهو كهل
خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف
والرقة بين الناس .

في تلك الدقيقة أومأت العروس الى حبيبة ان تقرب منها ، فاقتربت
وجلست بجانبها . وبعد ان تلفقت العروس الى كل ناحية نلت جازع
يريد ان يفشي سرّاً خفياً هائلاً لزّت الى الصبية وهمست في اذنها هذه
الكلمات بصوت مرتعش : استحلفك يا رفيقتي بالمواطن التي ضمت نفسيها
من كنا صغيرتين . استحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة .
استحلفك بمخبات صدرك . استحلفك بالحب الذي يلامس ارواحنا
ويجعلها شعاعاً . استحلفك بافراح قلبك واوجاع قلبي ان تذهبي الآن
الى سليم وتطلبي اليه ان ينزل خفية الى الحديقة وينتظرني هناك بين
اشجار الصفصاف . فصرعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي . ذكرته بالايام
الفايرة ، توسلي اليه باسم الحب ، قولي له هي نعمة عمياء ، قولي له هي
مائدة تريد أن تفتح قلبها امامك قبل ان يكتنفها الظلام ، قولي له هي
هالكة شقية تريد ان ترى نور عينيك قبل ان تحتلفها نار الجحيم ، قولي
له هي خاطئة تريد ان تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك ، اسرعي اليه وابتهلي
عني امامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لان الحور قد سدت آذانهم
وأعمت بصائرهم .

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب

المفرد وحده واخذت تستعطفه هامة في أذنه كلمات رفيقتها ودلائل
الود والاخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب
بينت شفة . حتى اذا ما انتهت من كلامها نظر اليها نظرة ظامى يرى
الكأس في قبة الفلك ، وبصوت منخفض تخاله آتياً من اعماق الارض
اجابها قائلاً : سأنتظرها في الحديقة بين اشجار الصفاف .

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى الحديقة .

ولم تمض بضعة دقائق حتى قامت العروس واتبعته بخلسة خطواتها
بين رجال فتلتهم ابنة الكروم ونساء اشغلت قلوبهن صباغة الفتيان .
ولما بلغت الحديقة الموساة باتواب الليل اسرعت ملتفة الى الوراء .
ومثل غزال جائع هارب الى كناسه من الذئاب الحافظة تقدمت نحو
اشجار الصفاف حيث وقف ذلك الفتى . ولما رأت نفسها بجانبه ترامت
عليه وطوقت عنقه بزندبها وحدقت بعينيها ثم قالت والالفاظ تتسارع من
شفثها بسرعة الدموع من اجفانها : اسمعني يا حبيبي . اسمعني جيداً . ها
قد ندمت على جهالي وتسرعني . قد ندمت ياسليم حتى سحقت الندامة
كبدني . انا احبك ولا احب سواك وسوف احبك الى منتهى العمر .
قد اخبروني بأنك سلوتي وهجرتي وتعلقت بهوى غيبي . اخبروني بكل
ذلك ياسليم وسموا قلبي بالسنتهم ومزقوا صدري باظافرهم ولأوا نفسي
بكنهم . قد اخبروني بحبيبة بأنك سلوتي وكرهتني وانشغلت بغيرها .
قد ظلمتني تلك الحبيبة واحالت على عواطفني لكي ارضى بنسبها عريساً ،
فرضيته ياسليم ولا عريس لي سواك .

والآن ، والآن قد رفع الغشاء عن عيني فبُعث اليك . قد خرجت

من هذا المنزل ولن اعود اليه . قد جئت لكي اضعك بذراعي ولا توجد
قوة في هذا العالم ترجعني الى ذراعي الرجل الذي زففت اليه كرهأ
وبأساً . قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلاً ، وترك
الوالد الذي اقامه القدر ولياً ، وترك الزهور التي ضفها الكاهن
اكليلاً ، وترك الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل
شيء في هذا المنزل المأوؤ بالسكز والحلاعة واثبت لاتبعتك الى ارض
بعيدة ، الى اقاصي العالم ، الى مكان الجن ، الى قبضة الموت . تعال
نسرع يا سليم من هذا المكان مقستين بوشاح الليل . هلم نسير الى الساحل
ونركب سفينة تحملنا الى بلاد بعيدة مجهولة . تعال نمشي الآن
فلا يخيف الفجر الا ونحن في مأمن من ايدي العدو . انظر ،
انظر هذه الحلى الذهبية وهذه القلائد والحواتم الشينة ، وهذه الجواهر
النفيسة ، فهي تكفل بمستقبلنا وتكفي لتعيش بأمان كالامراء ... لماذا لا
تتكلم يا سليم؟ لماذا لا تنظر الي؟ لماذا لا تقبلني؟ اسمع انت صراخ قلبي
وعويل نفسي؟ الا تصدق اني هجرت عريسي واني وامي وجئت بأثواب
العرس لكي اهرب معك؟ تكلم او هلم نسرع فهذه الدقائق اثن من
حيات الالماس وأغلى من تيجان الملوك .

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نفمة اعذب من هس الحياة وامر
من عويل الموت والطف من حفيف الاجنحة واعبق من انين
الامواج - نفمة تتموج نبضاتها بين اليأس والامل ، واللذة
والالم ، والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر المرأة من الميول
والعراطف .

أما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشرف :
ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً ، والظلام نوراً ، وذلك الشرف
الذي يقف أمام النفس ، ويثنيها عن رغائبها ومنازعتها . ذلك الحب
الذي ينزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر
في الدماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها
الأمم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب رأسه وقد تغلب شرف
نفسه على ميلها وسوّل عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء :
ارجعي أيتها المرأة إلى ذراعي عريسك فقد فُضي الأمر وبحت اللحظة
ما حمورته الاحلام - اسرعي إلى أحضان المسرات قبل أن تراك أعين
الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت
حبيبها أيام البعاد .

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وقلمت كزهرة ذابلة أمام
الريح ثم قالت متوجعة : لا أعود إلى هذا المنزل وفي رفق من الحياة .
قد خرجت منه إلى الأبد . قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الأسير
أرض المنفى . فلا تبغيني عنك . ولا تقل انني بخائنة ، لأن يد الحب
التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت
جسدي إلى مشيئة العريس . ها قد طوّقت ذراعي حول عنقك فلا
تحلبها القروات وفربت نفسي إلى نفسك فلا يفرقها الموت .

فقال الشاب بحارلاً الخلاص من ذراعها متكلفاً اظهار الحق
والاشمئزاز : ابتعدي عني أيتها المرأة فقد سلوتك ، نعم سلوتك وكرهتك

وتعلقت بهوى غيرك ، فلم يقن الناس غير الصحيح . هل سمعت ماذا
اقول ؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك ،
فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي الى عريسك وكوني له
زوجة أمينة .

فقال الصبية متفجعة : لا ، لا أصدق كلامك ، فأنت تحبني وقد
قرأت معنى الحب في عيفيك وشعرت بعلامه عندما لمست جسدك .
أنت تحبني وتحبني مثلما احبك ، فأنا لا أترك هذا المكان
الا بجانبك ولن أدخل هذا المنزل وفي نفسي بقية من الارادة . قد
جئت لكي أتبعك الى آخر الأرض ، فسر امامي وارفع يدك واهرق دمي .
فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل : أتركيني أيتها المرأة
والا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة اولئك الناس المدعويين
الى أفراح عرسك وأرستهم غارك وجعلتك مضخة مرّة في أحناكهم ومثلاً
قيحاً على السنتهم وأوقفت نجيبة التي احبها قلبي تسخر بك وتبسم
فارحة بانتصارها مشهيرة بالغلابك .

قال هذا وأمسك بذراعها ليعدها عنه فتنهوت ملامحها وأبرقت
عينها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع الى الغضب
والفسارة وصارت كلورة فقدت اشبالها او كبحر أفلت أعناقها الزوايع
ثم صرخت : من هي التي تسنح بحبك بهدي وأي قلب بسكر يقبل
شفتيك غير قلبي !

لفظت هذه الكلمات وانثشت من بين اثوابها خنجرأ سنيئاً واعدته
بصدره بسرعة أثبرق ، فهوى وسقط على الارض كذهن قصفته العاصفة

فأخنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً ، ففتح عينيه المغمورتين بظل
الموت وارتعشت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع انفاسه الضعيفة : اقترني
الآن يا حبيبتي . اقترني يا ليلي ولا تتركيني . الحياة اضعف من الموت
والموت اضعف من الحب . اسمعي اسمعي فقهية الفارحين بعرسك .
اسمعي زين كؤوسهم يا حبيبتي . لقد انقذتني يا ليلي من مساواة هذه الفقهية
ومراة تلك الكؤوس ، فدعيني أقبل اليد التي كسرت قيودي .
قبلي شقي . قبلي شقيّ اللتين تكلفنا الكذب واخفنا اسرار قلبي .
أغضني أجفاني الذابلة بأصابعك المغسوسة بدمي . وعندما تطير روحي
في الفضاء ضعني الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحرت ياساً وحسداً .
قد أحبتك يا ليلي ولم احب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي
رحباني أفضل من الغرب بك في ليلة عرسك . قبليني يا حبيبة نفسي قبل
أن يرى الناس جثتي . . . قبليني ، قبليني يا ليلي .

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه !
فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت
عائل : تعالوا ، تعالوا أيها الناس ، فهنا العرس وهذا العريس . هلموا
أنويكم مضجعنا الناعم . استقظوا أيها النيام وانتهبوا أيها السكارى
واسرعوا أنويكم أسرار الحب والموت والحياة .

تمزج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً كلماتها الى آذان
العنفلين المغتبطين ، فارتعشت أرواحهم ، وأصفوا هنية كأن الصحو
قد باغت نشونهم ، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجة ،
وساروا متلفين يمينا وشمالاً ، حتى اذا ما رأوا جثة المصروع والعروس

الجائية بقرمها تراجعوا مذعورين الى الوراء ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر ، كأن منظر الدماء المنبثة من صدر القاتل ولعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة في أجسادهم .

فالتفت العروس اليهم وقد انشجت ملاحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة : اقتربوا أيها الجبناء ، ولا تخافوا خيال الموت ، فهو عظيم لا يدنو من صغاركم . اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر ، فإن آلة مقدسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . أنظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلة العرس - هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي - هو عريسي وأنا عروسته ، وقد بحشنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالتكم وفاسداً بلبائكم ، ففضلنا الذهاب الى ما وراء القبور . اقتربوا أيها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا ، وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلوبنا - أين هي تلك المرأة الحبيبة المسود التي وشت اليّ بحبيبي ، وقالت انه شغف بها وسلافي وتعلق بحبيبا لينساني؟ قد توهمت تلك الشريرة أنها ظفرت عندما رفع الكافن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . أين نجية المنيعة؟ أين تلك الأنثى الجهنمية؟ دعوها تقترب الآن وتوى أنها قد جهمتكم لتفرحوا بعريسي حبيبي وليس بعريس الرجل الذي اختارته لي . . .

أنتم لا تفهون كلامي ، لأن اللّجة لا تهي أغاني الكواكب . لكنكم سوف تهبون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها . سوف تذكرونني ولعنوني بشفاكم الائمة ، أما حطمتكم فسوف

يباركونني لأن الغد سيكون للحق والروح .

وأنت أيها الرجل الغي الذي استخيم الطيلة والمال والحباثة
ليصيرني له زوجة - أنت رمز هذه الأمة التبعة التي تبحث عن النور
في الظلمة ، وتوقّف خروج الماء من الصخرة ، وظهور الورد من القطرب
- أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لعباوتها استسلام الأعشى الى قائده
الأعشى - أنت مثل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم
وصلاً الى العقود والأساور . أنا أغفر لك صفارتك ، لأن النفس
الفارحة بذهاها من هذا العالم تغفر جميع ذلّات هذا العالم .

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ، ونظير ظاميء يقرب
حافة الكأس الى شفتيه أغمدته بهزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها
ظير زنبقة قطع عنقها حدّ المنجل . فتسلّمت النساء وصرخن صراخ الخوف
والألم وأغمي على بعضهن ، وتساعد ضجيج الرجال من كل ناحية
وافترخوا من المصروعين بوجل وهيبة .

فنظرت اليهم العروس المداذنة وقالت ونجيع الدماء ينهل بفراوة
من صدرها البلوري ؛ لا تفتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا ،
وان حاولتم فالروح الطائفة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم
بغف وقساوة . دعوا هذه الارض الجائنة تلوك جسدنا لقمة واحدة ،
دعوا نحفينا ونحفينا في صدرها مثلما تحمي البذور من تلوج الشتاء
حتى يجيء الربيع .

ولزّت العروس الى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه الباردة
وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع أنفاسها الأخيرة: أنظر يا حبيبي-

أنظر يا عريس نفسي كيف وقف الحساد حول مضجعتنا - أنظر عيونهم
المحدقة بنا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسّر ضلوعهم . قد انتظروني
طويلاً يا سليم فما أنذا . قد كسرت القبور وفككت السلاسل ، فلنسرعن
نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل . ها قد انحلت الرسوم
والنحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي - ها شفتاي فاقبل
أنفاسي الأخيرة . هلم نذهب يا سليم ، فقد رفع الحطب أجنته وسبح
أمامنا نحو دائرة النور .

وألقت المروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه
وأحنت رأسها على عنقه وظلّت عيناها محذقتين بعينه .

ولبت الناس صائتين هنيئة وقد اصفرّت وجوههم وتراخت
رُكبتهم ، كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحراك .

فتقدم اذ ذاك الكاهن الذي صفر بتعالبه أكاليل ذلك العرس
وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت
خشن قائلاً : ملعونة هي الأيدي التي بُدّت إلى هذين الجسدين الملتصقين
بدماء الجريمة والعار . و ملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الجزأ
على هالكين قد حملت الابالسة روحيهما إلى الجحيم . لتبقى جثة ابن
ساعوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول
بدمائهما حتى تنقسم لحماهما الكلاب وتذري عظامهما الريح . اذهبوا
إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة المنقطة المتضاعدة من داخل
قلبين جبلتاهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرّقوا أيها الواقفون بقرب
هانين الجيفتين ، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلعنكم السنة النار

الجهنمية ، ومن يبتغى منكم ههنا يكن محروماً ومردولاً فلا يدخل
المبطل الذي يركع فيه المؤمنون ، ولا يشترك بالصلاة التي يقدمها
المسيحيون !

فقدّمت سوسان ، تلك الصبيّة التي بعثها العروس رسولاً الى
حبيبها ، ووقفت أمام الكاهن ونظرت اليه بعينين مفروقتين بالدموع
وقالت بشجاعة : أنا أبقي هنا أيها الكافر الأعشى ، وأنا أحرسهما حتى
يحيى الفجر ، وأنا أحفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية ، فإن
ماتم عني محفراً مزقّت صدر الأرض بأصابعي ، وإن وبطتم ساعدي
سفرته بأسناني . اسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان ،
فالخنازير تأتي استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة تهاب رب
البيت وتحشى قدوم الصباح . اسرعوا الى مضاجعكم المظلمة لأن أنافي
الملائكة المتموجة فوق شبيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة
بالتراب .

وتفرّق الناس من أمام وجه الكاهن المعبوس ولبثت تلك الصبيّة
واحدة بقرب الجنتين المامنتين كأنهما أم رفوب نحرس طفلها في
سكينة الليل .

ولما توارى الجميع دخل ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب .

خليل الكافر

١

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان
كالأمير بين الرعية . وكان منزله القائم بين أكواعهم الحقيمة يشابه
الجبار الواقف بين الأفرام . وكانت معيشته متازة عن معيشتهم بميزة
السعة عن العوز ، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القسوة عن
الضعف .

إن نكلم الشيخ عباس بين أولئك الفلاحين أحسوا رؤوسهم
إيجاباً ، كأن القوى العقلية قد انتدبت بمثلاً لها واتخذت لبانه ترجيحاً
عنها . وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من أمام وجهه ، مثلبا
تتراكض أوراق الحريف أمام الأرياح . وإن صفع خد رجل منهم
ظل ذلك الرجل جامداً صامتاً كأن الضربة قد أنت من السماء ، فمن
الكفر أن يتجاسر ويرفع عينه ليرى من أنزلها . وإن تبسم لرجل
آخر قال الجميع ما أسعده فني رضي عنه الشيخ عباس !

ولم يكن استسلام أولئك المساكين الى الشيخ عباس وخوفهم
قساوته صادقين عن ضعفهم وقوته فقط ، بل كانوا ناتجين عن فقرهم
واحترابهم اليه . لأن الحقول التي كانوا يحرقونها والأكواع التي

يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجده مثلما ورثوا الفقر
والتعاسة عن آبائهم وجدودهم .

فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ، ولا
يحصلون لقاء أنعامهم وجهادهم إلا على جزء من الغلة لا يكاد يتقدم
من أظافر الجوع . قد كان أكثرهم يحتاج إلى الحُبز قبل انقضاء أيام الشتاء
الطويلة ، فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرع أمامه باكياً مستعطفاً
لكي يقرضه ديناراً أو مكيالاً من الخنطة ، فكان الشيخ عباس يجيب
سؤلهم مسروراً لعله بأنه سيستوفي الدينار دينارين ، ومكيال الخنطة
مكيالين عندها فجيء أيام البيادر والموسم .

وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكباين
بم حاجتهم إليه خائفين غضبه طالعين رضاه .

قدم الشتاء بثلوجه ، وغواصفه ، وخلت الحقول والأودية ، إلا من
 الغربان الناعبة والاشجار العارية ، ففرم سكان تلك القرية أكوأخهم
 بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عباس من الغلة وملأوا آفئته من عصير
 الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم ، يفنون الحياة بجانب المواقف منذ كرين
 مآتي الأجيال القارة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي .
 انتضى كانون الأول ، وفضى العام العجوز مستهداً أنفاسه الأخيرة
 في الفضاء الرمادي ، وجاءت الليلة التي يتوَّج فيها الدهر رأس عام
 الطفل ويحلبه على عرش الوجود .

توارى النور الضئيل ، وغمرت الظلمة البطاح والأودية ، وابتدأت
 الثلوج تنهمر بغزارة ، والعواصف تصفر وتتسارع ملعلعة من أعالي
 الجبال نحو المنخفضات ، حاملة الثلوج لتخزينها في الوهاد ، فترتعش
 هولها الاشجار وتتملبل أمامها الأرض ، فمزجت الأرياح بين ما تساقط
 من الثلج في ذلك النهار والماضي منه في تلك الليلة ، حتى أصبحت
 الحقول والشلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت
 سطوراً مبهمه ثم يحورها ، وفصل الضباب بين القرى المنشورة على كتفي
 الوادي وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشمع في نوافذ البيوت
 والأكوأخ الخفية . وقبض الرعب على نفوس الفلاحين ، وانزوت
 البهائم بقرب المالف ، واختبأت الكلاب في القراني ، ولم يبق سوى

الريح تخطب وتضج على مسامع الكهوف والمغاور ، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة ، وطوراً ينقض من أعالي قمم الجبال . فكانت الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز ، فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبة في الأكواخ وتغارها بالبرد القارس والزمهرير الشديد . ففي هذه الليلة الهائلة ، ونحت هذا الجو النائر ، كان فتى في الثانية والمشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرج من دير قزحيا إلى قرية الشيخ عباس ، وقد أيسس البرد مفاصله ، وانتزع الجوع والحوف قواه ، وأخذت الثلوج توبس الأسود كأنها تريد أن تكفه قبل أن تمته ، فكان يخطو إلى الأمام والارياح تصده وترجمه إلى الوراء ، كأنها أبت أن تراه في منازل الاحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة بقدميه فيسقط ثم ينهض ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ، ثم يجرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكانه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق . أو كمصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحماة التيار الغضوب إلى الأعماق .

وظل الشاب سائراً والموت يقبضه حتى حارت قواه وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتقى على الثلوج .

وحصر صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده . صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه . صوت منازع فانطأ أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترومي به إلى المادية . صوت محبة الكيان في فضاء العدم .

١ هو أغنى وأعزير دير في لبنان ، تفقد حاصلاته بالولف الدناير ، ويكنه عشرات من الرهبان المروفين بالهدين . وقزحيا لفظه سريانية معناها « فردوس الحياة » .

في الجهة الشمالية من تلك القرية ، كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيتها . هذه المرأة هي أرملة سيمان الرامي الذي وجد قتيلاً في البرية منذ خمسة أعوام ولم يعرف قاتله بعد .

كانت راحيل مثل جميع الارامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء . فكانت تخرج أيام الحصاد وتلقط السابل المتروكة في الحقل ، وفي أيام الحريف كانت تجمع فضلات الاثمار المنسية في البساتين ، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخييط الاثواب لقاء درهمات قليلة أو مكيال من الذرة . وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة عادة تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت .

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته واكتنف الرماد جسده ، وفوق رأسهما سراج ضعيف يبعث أشعسه الصفراء الضئيلة الى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية الى كبد الفقير الحزين .

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسيمان ولولة الأرباب خارجاً ، ومن وقت الى آخر كانت الصبيّة تنف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود الى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر .

في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمها وقالت بسرعة: هل سمعت يا أماه؟ هل سمعت صوت صارخ مستغيث؟

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت غنبيته ثم أجابت: لا، لم أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي.

فقالت الصبية: أنا قد سمعت صوتاً أعنى من هزيم الريح وأمر من عويل العاصفة.

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة وأصغت دقيقة ثم قالت: قد سمعت الصراخ ثانية يا أماه. فاجابت الأم وقد أسرعرت مرتاعة نحو النافذة: وأنا قد سمعت أيضاً... تعالي تفتح الباب وننظر. أوصدي النافذة كيلا تطفئ الريح السراج.

قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجذائل شعرها.

مشى راحيل بضع خطوات فאלحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت: من الصارخ؟ أين المستغيث؟ فلم يجبها أحد، ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة، وأذلم تسمع غير صراخ الزويعمة تقدمت إلى الأمام يشجاعة متلفئة إلى كل ناحية حاجية وجبهة من تموجات الريح العنيفة. ولم تسر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج. قد أوشكت الأرياح أن تحوها، فاتبعتها بسرعة جازع مترقب، وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ذاصع

البياض . فتقدمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها
ووضعت يدها على صدره ، واذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت
نحو الكوخ وصرخت قائلة : هلمّي يا مريم ، هلمّي الى معونتي فقد
وجدته .

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد
والخوف ، حتى اذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على
النّاج تأوّهت وصرخت بلهفة وتوجّع ، فقالت الأم وقد وضعت يديها
نحت ابطيه : هو حي فلا تخافي بل امسكي بأطراف أثوابه وتعالى
نحمله الى البيت .

حملت المرائان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتسكك
بأقدامهما ، حتى اذا ما بلغت به الكوخ ألقناه بجانب الموقد وأخذت الأم
تفرك أعضائه المتجلدة والابنة تحفف بأطراف ثوبها شعره البليل
وأصابه الباردة . فلم تمرّ بضع دقائق حتى عادت اليه الحياة فتحرك
قليلاً وارتعشت أعضائه وتهدت تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجائه في
قلبي المرائين الشفوقين . فقالت مريم بعد أن حلت سبور حذاءه المهشم
ورحلت عباءته البليدة : أنظري يا أماه ، أنظري ملابسك فهي شبيهة
بأثواب الرهبان . فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من
القضبان اليابسة وقالت مستغربة : ان الرهبان لا يخرجون من البر
في مثل هذه الليلة الخفيفة ، فأني شيء يا ترى جعل هذا المسكين يخاطر
ب حياته ؟

فقالت الصبية مستدركة : ولكن هو أمرد يا أماه وللهربان حلى

كثيفة . فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنبهة : جففي قدميه جيداً يا ابنتي واحبباً كان أم مجرمًا .

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرّة صغيرة مملوءة خمرًا وسكبت منها في اقاء من الفخار ثم قالت لابنتها : أسدي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من الخمر فيلتعش وتعود الحرارة الى جسده .

قرّبت راحيل حافة الطاس الى شفطي الشاب وجرعته قليلاً ففتح عييه الكبيرتين ونظر الى منقذتيه لأول مرّة نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجليل - نظرة من شعر بلاس الحياة بعد أن كان بين بحال الموت - نظرة الأمل بعد اليأس . ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفطي المرتشتين : ليبارككما الله .

فقال راحيل وقد وضعت يدها على كتفه : لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي ، بل ابق صامتاً حتى تعود اليك القوة .

وقالت مريم : اتكىء يا أخي على هذا المسند واقرب قليلاً من الموقف .

فانكأ الشاب متنبهاً . وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمرًا وسقته ثانية ، ثم التفت نحو ابنتها وقالت : ضع يديك على جبهته بقرب النار لتجف . ففعلت مريم ثم جلست تنظر اليه بحنو وثقة كأنها تريد أن تبث بنظراتها الحرارة والقوة في جسده التجيل .

وأحضرت راحيل اذ ذاك رغيفين من الحبز وقصعة مملوءة ديباً
وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقمًا صغيرة
مثلما تفعل الأم وطفلها . حتى اذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء
من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية
على وجهه المصفر وتلمعت عيناه الحزینتان ثم قال هازأً رأسه بهدوء :
« الرحمة والقساوة تتصارعان في القاب البشري مثلما تتحارب العناصر
في فضاء هذه الليلة المظلمة ، ولكن سوف تغلب الرحمة على القساوة
لأنها الهية ، وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بجي النهار . » وسكت الشاب
دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يسمع : يد بشرية دفعتني الى
الموان ويد بشرية خلصتني ، فما أشد قساوة الانسان وما أكثر رأفته !
فدالت راحيل بصوت تتزج بقاطعه عاطفة الأمومة بعدوبة الطمانينة :
كيف نجرات يا أخي وتركت الدبر في هذه الليلة التي تخافها الذئاب
فتنزوي بالكهوف ، وتهاجم المقبان فتختبئ بين الصخور ؟

فأغض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بألفائه الدموع الى
أعناق قلبه ثم قال : للتمالب أوجرة والطيور النساء أوكار ، وأما
ابن الانسان فليس له أن يسند رأسه .

فقالت راحيل : هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب
اليه أحد الكتبة أن يتبعه الى حيث يذهب .

فأجاب الشاب : وهكذا يقول كل من يريد أن يتبع الروح
والحق في هذا الجليل المملوء بالكذب والرياء والفساد .

فسكرت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد :
ولكن في الدير غرف عديدة رجة ، وخزائن طائفة بالذهب والفضة ،
وأقية مملوءة بالقلعة والخمور ، وزرائب غاصة بالمجول والكبوش
المسنة ، فأني أمر بملك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه
الليلة ؟

فقال الشاب متنبهاً : قد تركت جميع هذه الأشياء وخرجت
كرهاً من الدير .

فقلت راحيل : ان الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة
الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً . وقد سمعت
بأن الرجل لا يصير راهباً الا اذا نزع عنه الارادة والفكر والميل
وكل ما يختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرؤوسيه
نوق طاعتهم ، فكيف يطلب منك رئيس دير قزحياً أن تسلم حياتك
الى العواصف والثلوج ؟

فأجاب الشاب : ان الرجل لا يصير راهباً في غرف رئيسه الا
إذا كان مثل آله عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة . أما أنا فقد خرجت
من الدير لأنني لست آله عمياء بل انسان يرى ويسمع .

فحدقت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سرّاً خفياً
يريد كتمانها ، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة : انخرج الانسان
الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتعم الآذان ؟
فتنهذ الشاب وأخفى رأسه على صدره وقال بصوت عتيق : خرجت
مطروداً من الدير .

فقال راحيل بدهشة : مطروداً ؟

ورددت مريم هذه الكلمة متأوهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على اظهاره الحقيقة للمراتين ، وخاف أن تتحول رأفتها به الى استياء واستهجان ، ولكنه نظر فرأى في عينيها أشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق : نعم خرجت مطروداً من الدير لأنني لم أستطع أن أحفر قبوري بيدي . لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء . لأن نفسي أبت أن تنعم بأموال الفقراء والمساكين . لأن روحي قد امتعت عن التلذذ بتجيرات الشعب المستسلم الى العباوة . خرجت مطروداً لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ . لأن خوفي لم يعد يقبل الحبز المعجون بدموع اليتيم والارملة . لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء . خرجت مطروداً كالأبرص القذر لأنني ردّدت على سامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسساً وراهباناً .

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه مستغربتين كلامه محدقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى الى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به اليهما . حتى اذا ما فت محبة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه بانعطاف وسأله قائلة : أين أبوك وأهلك يا أخي ، هل هما حيّان ؟

فأجاب الشاب والغصص الموجهة تقطع ألفاظه : ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا من يفظ رأس .

فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي
دمعة محزنة استقطرتها الشفقة من أجفانها . فنظر إليها الشاب نظرة
المغلوب الى منجده وقد انتعشت نفسه برقعة عواطفها مثلما تنتعش
الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في
قلبها . ثم رفع رأسه وقال : مات ابي وأمي قبل أن أبلغ السابعة
من عمري ، فأخذني كاهن القرية التي ولدت فيها الى دير قزحيا ، فسرَّ
الراهبان بي وجعلوني راعياً للبقر ، ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني
هذا الثوب الاسود الحشن وأوقفوني أمام المذبح قائلين : أقسم بالله
وقديسه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت كلامهم قبل
أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف ،
وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي سيروني عليها . كان اسمي خليلاً
فصار الراهبان منذ ذلك الحين يدعوني الأخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني
فقط كأنهم . كانوا يتنعمون باللحوم والمأكول الشهية ويطعموني
الحبز اليابس والبقول المجففة ، ويتلذذون بالحُمور والشارب الطيبة
ويسقوني الماء بمزجاً بالدموع ، ويضطجعون على الاسرة الناعمة
وينيموني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب ذرائب
الخنازير ، فكنت أقول في نفسي : متى أصبح راهباً يا توى فأشارك
هؤلاء البعداء بغيظتهم ، وأصبح خليلاً بلذاتهم ومسراتهم ، فلا تقطع
قلبي رائحة الطعام ، ولا تعذب كبدي ألوان الحُمور ، ولا ترتعش
روحي لصوت الرئيس ؟ ولكن باطلاً كنت أتني وأحلم لأنني بقيت
أرعى البقر في البوية وأنقل الحجازة الثقيلة على ظهري ، وأحفر التراب

بساعدني .

بقيت أفعل كل ذلك لبقاء الحبز الديني والمأوى الضيق ، لأنني لم أكن أعلم أنه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علموني الكفر بكل شيء إلا معيشتهم ، وسمموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام ، حتى ظننت أن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء ، وأن الدير هو ميناء الخلاص .

واستوى خليل جالساً وانبسخت ملاحه المتقبضة ونظر كأنه رأى شيئاً جميلاً منتصباً أمامه في ذلك الكوخ . أما راحيل ومريم فلبتتا صامتين محدقتين به ، وبعد هنيهة عاد فقال : إن السماء التي شئت فأخذت والدي ونفقتي يتيماً إلى الدير ، لم تشأ أن اصرف العمر كله كالأعمى السائر في المخابر الخطرة ، ولم ترض بأن أكون عبداً تعباً متصاعراً إلى نهاية الحياة ، ففتحت عيني وأذني وأرتقي النور مشعشعاً وأسمعتني الحقيقة متكلمة .

فهزت راحيل رأسها إذ ذاك وقالت : أوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس ؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟

فأجاب خليل قائلاً : النور الحقيقي هو ذلك الذي ينبثق من داخل الإنسان ، ويبيّن سرائر النفس للنفس ، ويجعلها فارحة بالحياة مترفة باسم الروح . أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل . الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات السطر القاسية . الحقيقة هي

تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا وتجعلنا ننسى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس .

فقال راحيل : كثر هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم ، وكثر هم الذين يعتقدون بأن هذه العاطفة هي ظل الناموس الذي سنه الله للإنسان . ولكنهم لا يفرحون البتة بأيامهم بل يظلون تعساء حتى الموت .

فأجابها خليل قائلاً : باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعساً في حياته . وكذابة هي العواطف التي تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لأن واجب الإنسان أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبيل السعادة ويكرز باسمها أينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية . لأننا لم نجيء هذا العالم كالمنفين المزدولين ، بل جئنا كالاطفال الاغنياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا .

هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري ، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الخير ومن فيه كهوة مظلمة تنبعث من أعماقها الاشباح المخيفة لتسميتي . هذا هو السر الخفي الذي أعلنته البرية الجلييلة لنفسه عندما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوهاً في ظل الاشجار .

ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الحمرة المساوية تشبعت

وروقت بين الزغبان، اذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما توبض البهائم المتخومة، وأخذت أبين لهم أفكارى وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم. قلت لهم: لماذا نصرف الايام في هذه الحلاوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين، مستطيين الحُبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم، متلذذين بقلّة الارض المسلوقة منهم - لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل، مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة حاومين البلاد قري نفوسنا وعزم سواعدها؟ ان يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأَي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتمدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً؟ اذا كنتم أفضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا اليهم وتعلموهم، وان كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلموا. . . كيف تذرون الفقر وتعيشون كالامراء، وتذرون الطاعة وتتمردون على الانجيل، وتذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات؟ . . أنتم تظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم. وتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعاً. وتظاهرون بالنسك والتشكف وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى. تعالوا نعيد أراضى الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين، ونرجع الى جيوبهم الأموال التي أخذناها. تعالوا تنفروا الى كل ناحية مثلما تنفروا أسراب الطيور، فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها، ونعلم هذه الأمة الثمسة أن تبسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية. لأن المناعب

التي نجدها بين الناس هي أجمل وأجمل من الراحة التي نستلم إليها في هذا المكان ، والرأفة التي تلامس بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير ، وكلمة التعزية التي نقولها على سامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نردها في الهيكل .

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً أنفاسه ثم رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بضوت هادئ :

كنت أنكلم بهذه الأشياء وما يشاهدها أمام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم ، كأنهم لم يصدقوا أن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً بمثل هذا الكلام ، حتى إذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه : أتتجراً أيها الضعيف وتتلظف أمامنا بمثل هذا الكلام ؟ واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً : هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والحنازير التي وافقتها كل أيام حياتك ؟ وجاء آخر وقال مترعداً : سوف ترى ما يحل بك أيها الخبيث الكافر . ثم تفرقوا عني إلى كل ناحية مثلما يتبعذ الأصحاء عن الأبرص .

وذهب بعضهم وشكروني إلى الرئيس ، فاستدعاني عند غروب الشمس ، وبعد أن وبخني بقساوة على مسع من الرهبان المتهيجين أمر بجلدي فجلدت بسياط من المرس ، ثم حكم بسجني شهراً كاملاً ، فأنادني الرهبان مقهقين فرحين إلى غرفة وطبة مظلمة .

انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر

بغير ديبب الحشرات ، ولا ألمس سوى التراب ولا أعرف نهاية الليل
من بدء النهار ، ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرهبان عندما يجي
ويضع بقربي كسرة من الحبز اليابس المظن وطاساً من الماء المزوج
بأخل . ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان تحول جسدي
واصفار وجهي ، توهموا أن أميال نفسي قد ماتت في داخلي ، وانهم
بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي ...

مرت الايام إثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي
بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة . ولكن
باطلاً كنت أفكر وأفكر ، لأن الغشاء الكثيف الذي حاكه
الأجيال الطويلة على بصائرهم لا غزقه الايام القليلة . والطينة التي طلت
بها الغباوة آذانهم قد تحجرت ، فلا تزيلها ملامس الاصابع الناعمة .

وبعد مكينة مملوءة بالتهديدات ، رفعت مريم رأسها والتفت نحو
والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ، ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسأله
قائلة : هل عدت وتكلمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدير في
هذه الليلة المخيفة التي تعلم ان يكون رؤوفاً ووفيقاً حتى
بأعدائه !

فقال الشاب : في هذا المساء عندما تعظم هول العاصفة وابتدأت
العناصر تتعارب في الفضاء ، جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين
حول النار والشفولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة . وفتحت
الانجيل متأملاً بتلك الاقوال التي تستميل النفس وتنسبها غضب
الطبيعة وقساوة العناصر . ولما رأني الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا

انفرادي سبباً للسخرية في ، فجهاء بعضهم ووقفوا بقرني وأخذوا
يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحو مستهزئين ، فلم أحفل بهم بل
اطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة . فتعلموا لذلك غبطة
ونظروا اليّ شرراً ، لأن سكوتي قد أيس عواطفهم ، ثم قال أحدهم
ساخراً : ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم ؟ فلم أرفع عيني نحو المتكلم ، بل
فحت الانجيل وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآية : وكان يقول
للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن
تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثراً تليق بالتوبة ولا تبتدثوا تقولون
في نفوسكم ان لنا ابراهيم أباً لأنني أقول لكم ان الله قادر على أن يقيم
من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم . والآن وقد وضعت الفأس على
أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تعطي ثراً جيداً تقطع وتلقى في النار .
وسأله الجموع قائلين : فماذا تفعل ؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان
فليعط من لبس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا .

عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان ، سكت
الرهبان دقيقة كأن يداً خفيفة قد قبضت على أرواحهم ، ولكنهم
عادوا وقهقهوا ضاحكين ثم قال أحدهم : قد قرأنا هذا الكلام مرات
عديدة ولنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا . فقلت : لو
كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغيرة
باللوج يتأففون برداً وينضوون جوعاً وأنتم ههنا تتمتعون بتبيلاتهم
وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم . . .

لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفتي حتى صغني أحد الرهبان على

وجهي كأنني لم أتكلم بغير الحماقة ، ثم وقفتي آخر برجليه ، وآخر انتزع الكتاب من يدي ، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً ، واذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ بأعلى صوته : اقبضوا على هذا الشرير المتعرد ، وجروه بعيداً عن الدير ، ودعوا العناصر الغضوب تعلمه الطاعة . اخرجوه الى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ، ثم اغسلوا أكفكم خوفاً من سوم الكفر المتعلقة بأثوابه ، وان عاد متضرعاً متظاهراً بالنوبة لا تفتحوا له الأبواب ، لأن الأفعى اذا سحبت في الفخ لا تنقلب حمامة ، والعليقة اذا غرست في الكرم لا تثمر نيناً .

حينئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج الدير وعادوا ضاحكين ، وقبل أن يوصلوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخراً : كنت بالأمس ملكاً وكانت وعيتك البقر والحنازير ، وقد خلعتك اليوم أيها المصلح لأنك أسأت السباسة ، فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة ، وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها .

وتهد خليل تنهيدة عميقة ، ثم حوّل وجهه ونظر الى النار المناجحة في الموقد . وبصوت جارج بحلاوته قال : هكذا طردت من الدير . وهكذا سلّني الرهبان الى يد الموت ، فسرت والضباب يحجب الطريق عن بحري ، والرياح الشديدة تمزق أثوابي ، والثلوج المتراكمة تنمسك بركبتي ، حتى وغنت قسواي فسقطت مستغيثاً صارخاً يأس شمر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة .

ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظلمة والغيوم ، من وراء الاثيو والكواكب ومن وراء كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن أموت قبل أن أعلم ما بقي من سرائر الحياة ، فبعثكما اليّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم .

وسكت الشاب والمرأتان تنظران اليه بانعطاف واعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتوكتا معها بالشعور والمعرفة . وبعد هنيهة مدت راحيل يدها فسر ارادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتابع في عينيها : ان من تحتاره السماء نصيراً للحق لا تقنيه المظالم ولا تقيته الثلوج والعواصف .

وهست مريم قائلة : ان العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنها لا تميت بدورها .

فقال خليل وقد أثارت التعزية وجهه المصفر مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الافق : ان كنتما لا تحسانني متمرداً وكافراً كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزاً للشدة التي تعانيها الامة قبل بلوغها المعرفة . وتكون هذه الليلة التي كادت غيبتني شبيهة بالثورات التي تتقدم الحرية والمساواة . لأن من قلب المرأة الحساس تنبثق سعادة البشر ، ومن عواطف نفسها الشريفة تنولد عواطف نفوسهم . قال هذا وانكأ على الوسادة ، فلم تشأ المرأتان متابعة الحديث لانهما عرفتتا من نظرائه أن النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمرّ بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأنس
على ذراعي أمه ، فقامت راحيل بهدوء وتبعتهما مريم وجلستا على
فراشهما تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل روحيهما
ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت : في
عينيه المطبقين قوة غريبة تنكلم بالسكينة وتنبه آميال النفس .
وقالت الابنة : يدها يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في
الكنيسة .

فهمست الوالدة : على وجهه الكئيب ظاهرة رقة المرأة وقوة
الرجل .

وحملت أجنحة الكرى روحي المرائين الى عالم الاحلام ، وخدمت
النار في الموقد وتحولت الى رماد . ثم جفت زيت السراج فشحّ
نوره ببطء ثم انطفأ . وظلت العاصفة الغضوب تضجّ خارجاً والجو
القاتم ينثر رقع الثلوج ، والأرياح العنيفة تقذفها بيناً وشمالاً .

مضى اسبوعان على تلك الليلة والفناء التلبد بالنيوم يسكن حيناً
ثم ينور متهيجاً ، غامراً الأودية بالضباب ، مكفناً الطلول بالتلوج .
وفد همّ خليل ثلاث مرات أن يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل
تصده بلطف وانعطاف قائلة :

لا تسلم حياتك ثانية الى العناصر العمياء ، بل ابقَ ههنا يا أخي ،
فاخبر الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظلم
متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله . نحن فقراء يا أخي ولكننا نحيا
أمام وجه الشمس مثل جميع الناس ، لأن الله يعطينا خبزنا كفاف
يومنا .

أما مريم فكانت توجه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهداتها الهادئة
لكي يمتنع عن الذهاب ، لأنها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت
الخير ، شعرت بوجود قوة علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى
قلبها ، وتنبه عواطف جديدة مستحبة في قدس من أقداس روحها -
لأنها شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب
الصية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق
العطر .

لا يوجد في داخل الانسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة

الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية وغناً بخلايا صدرها
بالانغام السجيرية ، وتجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء وليلاتها مثل
الانبياء . ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سرّ أقوى وأجمل من ذلك
الميل الذي يحول سكونة نفس العذراء الى حراك مستمر يبيت بهزمه
ذكرى الايام الغابرة ، ويحيي بحلاوته الآمال بالايام الآتية .

والصبية اللبنانية تتأثر عن صبايا الالم بقوة عواطفها ورفقة
احساسها ، لأن التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من الثمر وتوقف
مذاكرها عن الارتقاء ، تحول نفسها الى استفسار ميول نفسها وتشغل
قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب
الارض بين المنخفضات ، فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر ،
فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم .

وشعر خليل بتسوجات روح مريم حول روحه ، وعرف أن الشعلة
المقدسة التي أحاطت بقلبه ، قد لامست قلبها . ففرح لأول وهلة وفرح
طفل ضائع وجد أمه ، ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغالها
ظناً منه بأن هذا التفاهم الروحي سيضلل كالاضباب عندما تفصله
الايام عن تلك القرية ، فكان يناجي نفسه قائلاً : ما هذه الاسرار
الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون ؟ وما هذه النواميس التي نسير
تارة على سبل وعرة فتسير متقادين ، وتوقفنا طوراً أمام وجه الشمس
فتقف فرحين ، وتبذلنا مرة قمة الجبل فنبتسم متبهلين ، وتهبط بنا
أخرى الى أعماق الوادي فنصرخ متوجعين ؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا
يوماً كالحبيب ويوماً تصفنا كالعدو ؟ ألم أكن بالأمس مكرهاً مضطهداً

بين رهبان الدير ؟ أو لم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري ؟ أو لم أقبل للرهبان إن السعادة هي مشيئة الله في الانسان ؟

إذاً ما هذا الحرف ؟ ولماذا أغمض عيني وأحوّل وجهي عن النور انشعبت من عيني هذه الصبية ؟ أنا مطرود وهي فقيرة ، ولكن أبايئز وحده يحيا الانسان ؟ أو ليست الحياة ديناً ووفاء ؟ أو لستنا بين العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والضيف ؟ ولكن ماذا تقول راحيل اذا علمت أن روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى ؟ وماذا تفعل يا ترى اذا ما درت بأن الشاب الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها ؟ وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء اذا ما علموا ان فتى ربي في الدير وخرج منه مطروداً ، جاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبية جبيلة ؟ أفلا يغلقون آذانهم اذا ما قلت لهم إن الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص الى النور والحرية ؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد ، اذا ما سمع حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية اذا ما رددوا على مسامحة تلك الاقوال التي سببت طردني من الدير ؟

كان خليل ينساجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل بالسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت تختلس النظرات اليه وتقرأ أحواله في ملامح وجهه ، وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدره ،

وتشعر بجبالاته هواجسه متأيلة حول قلبه .

ففي عشية يوم ، وقد وقف خليل بقرب الكوفة المطلة نحو الوادي ، حيث الأشجار والصخور المنخفضة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوفة الى الفضاء ، فالتفت نحوها ، واذا التقت عيناه بعينها تنهد تنهيدة عميقة ثم حوّل وجهه وأغضّ أشفاته كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعة في أعماق اللاهية باحثة عن كلمة تقولها .

وبعد تنهيدة تشجعت مريم وسأله قائلة : الى أي مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتفتح الطرقات ؟

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وحدث بالافق البعيد : سوف أتبع الطريق الى حيث لا أعلم .

فارتعشت روح مريم ثم قالت متتهدة : لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا ؟ أليست الحياة هنا أفضل من الغربة البعيدة ؟

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرفقة كلماتها ونغمة صوتها : ان سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يجيبهم ، لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسه .

فأوهت مريم ولبثت ساكنة ، لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال : ان سكان هذه القرية يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكهان بغض كل من يفكر لذاته ، فصاروا

يقلدوهم ويتبعون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم
 فاحصين لا تابعين . فاذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا يا
 اخوتي نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا ، لا مثلما يريد الرهبان
 والقسس ، لأن الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد
 غيره ، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه .
 وإن قلت لهم اصعدوا يا اخوتي واسمعوا صوت قلوبكم ، واعملوا ارادة
 الروح الكائنة في أعماقكم ، يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط
 التي أقامها الله بين السماء والأرض .

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم ، وبصوت يحاكي زنين الأوتار
 القضية قال: ولكن في هذه القرية يا مريم قوة سحرية تمتلكني وتتشبث
 بنفسي - قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت اليّ قساوتهم .
 في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه ، وفيها عانقت روحي روح الله .
 في هذه القرية زهرة نابذة بين الأشواك ، يستميل جمالها نفسي ويملأ
 عطرها كبدي . فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالاباديء التي
 أبعدتني عن الدير ، أم أبقي بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً
 بين الاشواك المحيطة بها ؟ ماذا أفعل يا مريم ؟

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزّت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة
 أمام نسيم السحر ، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها ، فقالت والحياء يغالب
 لسانها : كلانا بين يدي قوة خفية عادلة رحوم ، فلندعها تفعل ما تشاء بنا .
 منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم ، وصارت
 نفسها شملة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتصوّع حولها البخور .

منذ ابتداء الدهر الى أيامنا هذه ، والفئة المتهمكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية ، ولن يزول الا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكاً ويصبح قلب كل امرأة كاهناً .

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء . والكاهن يقيم الميكل على قبور المؤمنين المستسلمين . الامير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده الى جيبه . الحاكم ينظر الى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً . وبين عبوسة النمر وابتسامه الذئب يفتي القطيع . الحاكم يدعي تشييل الشريعة والكاهن يدعي تشييل الدين ، وبين الاثنين تفتي الاجساد وتضمحل الأرواح .

وفي لبنان - ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير الى نور المعرفة - قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرق الارض ويستغلها كما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني .

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلاً : قد أقامني السلطان ولياً على أجسادكم . والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً : قد أقامني الله وصياً على أرواحكم . أما اللبنانيون

فيظنون صامتين لأن القلوب المغلفة بالتراب لا تنكسر ، لأن الاموات لا يكون .

فالشيوخ عباس الذي كان في تلك القرية ولباً وحاكماً وأميراً ، كان محباً لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ، لأنهم كانوا بشار كونه بقتل المعرفة واحياء الطاعة في نفوس حاد في حقوله وكرومه . ففي ذلك المساء - بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب ، وراحيل تنظر اليهما بالنعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما - ذهب الحوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس أن الرهبان الاتقياء قد طردوا من الدير ففي متبرداً شريراً ، وان هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ اسبوعين ، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سيمان الرامي .

ولم يكتف الحوري الياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر ، بل زاد قائلاً : ان الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية ، والتينة التي يقطعها رب الخقل ويلقيها في النار لا نعطي قاراً جيدة وهي في الموقد . فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جرائم العلل الخبيثة ، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير .

فسأله الشيخ عباس قائلاً : وكيف عرفت أن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلّة الخبيثة ؟ اليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعلهم ناطوراً للكروم أو راعياً للبقرة ؟ نحن بحاجة ماسة الى العمال ، فإذا جلبت لنا الطريق ففي قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بلامس الأفعى ثم قال مشطاً
لحيته الكثيفة بأصابعه : لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده
الرهبان ، لأن أراخي الدير وسبعة وقطعانه لا تحصى . وقد أخبرني
مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس ، أن هذا الشاب كان يردد
على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيش
وخبايته ، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً : أرجعوا حقول
الدير وكرومه وأمواله الى سكان هذه القرى الفقراء ، وتفرقوا الى
كل ناحية وذلك خير من الصلاة والعبادة . وأخبرني المكاري أيضاً بأن
قساوة التبويخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن ، لم تُعده لهذا
الكافر صوابه ، بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما
تكثر أوساخ المزابل عند الحشرات .

فانتصب الشيخ عباس على قدميه ، ونظير نمر يتراجع قليلاً الى
الوراء قبيل الوثوب بقي ساكناً هنيئاً يصرّ أسنانه وينتفض غيظاً .
ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه بصوت عالٍ ، فجاء ثلاثة منهم
ورقفوا أمامه مستطعين أمره ، فخاطبهم قائلاً : في بيت راحيل
الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب ، فاذهبوا الآن وقودوه اليّ
مكتوفاً ، وإن قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجروها على الثلج
بجدائل شعرها ، لأن من يساعد الشرير يكون شريراً .

فأخنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليشتموا مشيئة سيدهم ،
وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعلاه بالشاب
المطرود وراحيل الأرملة .

تواري النهار وقدم الليل ناشرآ خيالاته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج . وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزع والموت . فأرصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السرج ، وجلسوا يصطلون بقرب المواقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم .

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخلييل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء ، طرق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفت راحيل مذعورة وشقت مريم مرناعة ، أما خلييل فلبث هادئاً كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم .

فافترب أحد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خلييل وقال بصوت أجش : ألسنت أنت الشاب المطرود من الدير ؟ فأجابه خلييل ببطء : أنا هو فباذا تريدون ؟

فقال الرجل : نريد أن نسير بك مكتوفاً الى منزل الشيخ عباس ، وإن أبديت ممانعة نجرك على الثلج كالحروف المذبوح .

فانتصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجمعت جبهتها وقالت بصوت مرتجف : أي ذنب أناه أمام الشيخ عباس ، ولماذا تريدون جره

مكتوفاً ؟

وقالت مريم ونعمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتهما : هو فرد وأنتم ثلاثة ، فمن الجبانة أن تتحالفوا على اذلاله وتعذيبه .

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه : أوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس ؟ قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهم ليوثق به كفتي خليل ، فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه ، بل ظل رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوينة ، وسالت على شفوية ابتسامة محزنة ثم قال : أنا أشقى عليكم أيها الرجال ، لأنكم آله قوية عياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدهم . أنتم عبيد الضباوة والغباوة هي أشد اسوداداً من بشرة الزوج ، وأكثر استسلاماً للحيث والقساوة . كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فيبتئنا هرة عبيقة مظلمة قمص ندائي وتحجب حقيقي عنكم فلا تسبعون ولا تبصرون . ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم .

سمع الرجال هذا الكلام ، فصبحت عيونهم وافشعرت أبدانهم وبتسوا بالشاب هنية كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم ، وأيقظت الميول العلوية المناجعة في أعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد قلقل في مسامعهم ، وذكّرهم بالمهمة التي بعثهم من أجلها ، فتقدموا وأوثقوا ساعدي الشاب وخرجوا به ساكنين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم . فاتبعتهم راحيل ومريم ، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع الى الجلبلة ، سارنا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

ان الاخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لأن بعدمهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم ينصرفون بكليتهم الى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لطف الثلوج ، وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلاً الى استطلاع الأخبار لكي يلاؤا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ، ويصرفوا باستفسارها ليلتهم الباردة .

وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتروا أكوأخهم وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة ، الرجال والنساء والصبيان وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشريرة في بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم .

جلس الشيخ عباس على مقعد عال ، وتربع بجانبه الحوري الياس ، ووقف الفلاحون والخدام متربعين محدقين بالفق المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات ، أما راحيل ومريم

فكأننا واقفين خلفه والخوف يراود قليبيها ، ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما ، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأته الحق فاتبعته ؟ وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحب فاستيقظت ؟

ونظر الشيخ عباس اذ ذاك نحو الشاب ، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلاً : ما اسمك أيها الرجل ؟

فأجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : من هم اهلك وذووك وأين مسقط رأسك ؟

فالتفت خليل نحو الفلاحين الناطرين اليه بكروه واشتواؤهم وقال : الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي . وهذه البلاد الرسيمة هي مسقط رأسي .

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال : ان الذين تنسب اليهم يطلبون معاقبتك ، والبلاد التي تدعيها وطنك تأتي ان تكون من سكانها .

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه : ان الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبناءها وتسلمهم الى قساوة القمأة والظالمين . والبلاد المغسورة بالذلّ والغوان تضطهد محبيها ومخلصيها . ولكن أيترك الابن الصالح والدته اذا كانت مريضة ، وينكر الأخ الرؤوف أخاه اذا كان تعساً ؟

ان هؤلاء المساكين الذين أسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم الذين

أسلموك رقابهم بالامس . والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم الذين
يزرعون حبات قلوبهم في حقولك ، ويهرقون دماء أجسادهم على
قدميك ، وهذه الأرض التي تأتي ان اكون من سكانها هي الأرض
التي لا تغفر فأها وتبتلع الطغاة والطامعين .

ففقّه الشيخ عباس ضاحكاً كأنه يريد أن يفرق بضحكه القبيح
روح الشاب ويوقفها عن المسير الى أرواح السامعين البسطاء ، ثم قال :
أولم تكن راعياً لثيران الدير أيها الشاب الوقح ؟ فلماذا تركت
رعيتك وخرجت مطروداً ؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رافة
بالمجاذيب الملتصدين من الرهبان الأتقياء ؟

فأجابه خليل : كنت راعياً ولم أكن جزاراً . كنت أقود
العجول الى المروج الخضراء والمراعي الخضبة ، ولم أسر بها فظ الى
الطلول الجرداء . كنت أوردها الينابيع العذبة وابعدها عن المستنقعات
الفاسدة . كنت أعيدها في المساء الى الحظيرة ولم أتركها في الوادي
فريسة للذئاب والضواري الخائفة .

هكذا كنت أفعل بالبهايم ، ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع
المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع
وتتركه يبيد جوعاً في الأكواخ المظلمة . ولو كنت ترحم أبناء الله
المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالساً الآن على
هذا المقعد الحريري وهم واقفون أمامك وقوف الفضبان العارية أمام
ريح الشمال .

فتحرك الشيخ عباس منزعجاً ، وتلمعت على جبهته قطرة عرق

باردة ، وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر
الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ، ثم قال مشيراً بيده : لم نأت
بك مكتوفاً أيها الكافر لنسمع هديانك ، بل أحضرناك لكي نخاكمك
كمجرم شرير ، فاعلم إذا أنك واقف الآن أمام سيد هذه القرية
ومثل إرادة الأمير أمين الشهابي أيده الله^١ ، وأمام الحوري الياس
يمثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع إذاً عن نفسك بما اتهمت
به ، أو فاركع مسترحماً ناذماً أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك ،
فغفر لك وتجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير .

فأجاب الشاب يهدوء : ان المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر
الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة
الواسعة ، وبصوت جهوري يشابه رنين الاجراس الفضية ناداهم قائلاً :
أيها الاخوة ، ان الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيداً على
حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني
فوق بقايا آباءكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله إيمانكم كاهناً في
كنيستكم قد جاءني ليدينني ، ويساعد على تمزيبي واذلالي . أما أنتم
فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألماً وتسمعوني
مستغيثاً مسترحماً . فد تركتم جوانب المواقف الدافئة لتشاهدوا ابنكم
وأخاكم مكتوفاً مهاناً . قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب

١ الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير بشير الكبير ، وقد حكم الجبل بعد موت أبيه .

الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً امام القضاة . أنا هو المجرم . أنا هو الكافر الذي طرد من الدير فحملته العاصفة الى فرينكم . أنا هو ذلك الشرير ، فاسمعوا احتجاجي ، ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين ، لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء ، اما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء .

قد اخترتكم قضائي لأن ارادة الشعب هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا علي بما توجبه ضمائركم . قد قيل لكم اني رجل كافر شرير ، ولكنكم لم تعرفوا ما هي جرمي . وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي ، لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستورة وراء الضباب ، اما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل .

جرموني أيها الرجال هي ادراكي تعاسكم وشعوري بثقل قيودكم . وآلامي أيها النساء هي شفتي عليكن وعلى أطفالككن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهات الموت .

انا واحد منكم أيها الجمع ، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الاودية التي تستفرغ فواكم ، وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم . انا أو من بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجمة ويرى صدوركم المقروعة . وأو من بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة منساوين أمام وجه الشمس . وأو من بالتعاليم التي تحردني وتحردكم من عبودية البشر ، وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الارض موطىء اقدام الله .

كنت في الدير راعياً للبقر ، لكن انفرادي مع البهايم الخرساء

في البرية الساكنة لم يعني عن المأساة الاليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول. ولم يصرّ اذنيّ عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الاكواخ. قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف الى وكرة ، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً ، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المجددة ، ثم احتال عليّ وابعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتسرد ويتفرق مذعوراً الى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل .

قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم ، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنني جعلت لسكنية تهديداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلایا الدير . ولكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي ، لأن صراخكم الأليم كان ينبع نفسي ويجدد قواي ، ويجيب اليّ الاضطهاد والاحتقار والموت .

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين : متى صرخنا منظمين واي فرد منا يتجاسر ان يفتح شفتيه ؟ وانا اقول لكم ان نفوسكم تصرخ منظلة في كل يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ، ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم ، لأن المنازع لا يسمع حشرة صدره ، اما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون . والطارئ المذبوح يرقص متسللاً قسر ارادته ولا يعلم ، اما الناظرون فيعلمون .

في أي ساعة من النهار لا تتأوه ارواحكم متوجعة ؟ أفي الصباح عندما تنهركم محبة البقاء وتزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم

كالعبيد الى الحقول ؟ أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس في ظل
الاشجار لكي تنقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون ؟ أم في المساء
عندما تعودون جائعين الى اكواحكم ولا تجدون سوى الحبز اليابس
والماء العكر ؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الاسرة الحجرية
فتنامون قلقين ، ولا يكمل النعاس اجفانكم الا وتهبون متوهمين
صوت الشيخ يرن في آذانكم ؟ وفي اي فصل من السنة لا تندب
قلوبكم متحسرة ؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلة جديدة
فتخرجون لمشاهدتها بأطوار بالية ممزقة ؟ أم في الصيف عندما تحصدون
الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتلاؤن اهراء سيدكم الظلوم
بالغلة ، ولا تحصلون لقاء اتعابكم على غير التبن والزوان ؟ أم في
الحريف عندما تجنون الاثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها
سوى الحلّ والبلوط ؟ أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردهم
البرد والمزهرير الى الاكواخ الملتحقة بالثلوج ، فتجلسون بجانب
المواقد متأففين خائفين غضب الزوايع والعواصف ؟

هذه هي حياتكم ايها الفقراء . هذا هو الليل المخيم على ارواحكم
ايها النعساء . هذه هي أشباح ذلكم وشقاكم ايها المساكين . هذا هو
الصراخ الاليم المستمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم ،
فاستيقظت وقرّدت على الرهبان وكفرت بعيشتهم ، ووقفت منفرداً
منظماً باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم ، فصبوني كافرأ شريراً
وطردوني من الدير ، فبحثت لكي اساطركم النعاسة واعيش بقربيكم ،
وامزج دموعي بدموعكم ، فأسلمتوني مكتوفاً الى عدوكم القوي الذي

يغتصب خيراتكم ويحيا غنيّاً بأموالكم ، ويملاّ جوفه الوسع من اثمار
انعامكم .

ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التي تحرثونها وتحرمون
غلّتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آباءكم عندما كانت
الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سعتم بأن الرهبان قد احتالوا
على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين
مخطوطة على شفتي الكاهن ؟ ألا تعلمون أن ممثلي الدين وابناء الشرف
الموروث يتعاونون على اخضاعكم واذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟
أي رجل منكم لم يلد عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ وأي
امراة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن
الكنيسة ؟

قد سعتم بأن الله قال للانسان الأول : بعرق جبينك تأكل
خبزك . فلماذا يأكل الشيخ عباس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب
خمره بمزوجة بدموعكم ؟ هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً اذ كان
في رحم أمه ؟ أم غضب عليكم لذنوب مجبولة وبعمكم عبيداً الى هذه
الحياة لكي تجمعوا غلّة الحقول ولا تأكلوا غير أشواك الاودية ،
وتقيموا القصور الفضة ولا تسكنوا غير الاكواخ المتداخية ؟

قد سعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه : مجاناً أخذتم
مجاناً أعطوا . لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا نقاساً في مناطقكم . اذا
اي تعاليم اباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وقعاظيمهم بالفضة
والذهب ؟ انتم تصلون في سكنة اليساري قائلين : أعطنا يا رب

خبرنا كفاف يومنا . والرب قد وهبكم هذه الارض لتعطيكم الحبز الكفاف ، فهل وهب رؤساء الاديرة السلطة لانتزاع هذا الحبز من بين ايديكم ؟ انتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة ، فأني شيء يجعلكم تباركون الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم ؟ ان يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه ، اما هؤلاء فيسيرون امامكم برؤوس مرفوعة واذيال طويلة ناعمة ، وقلائد ذهبية وخرازم ثينة . انتم تعلمون ابناؤكم محبة الناصري ، فكيف تعلقونهم الخضوع امام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه ؟ قد عرفتم أن رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يجيوا فيكم الروح المقدسة ، فهل تعرفون أن الرهبان والكهان يقتلون ارواحكم لكي يجيوا متسعين بخيراتكم متلذذين بحرقة قيودكم ؟ ماذا يغركم ايها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين امام صنم مخيف اقامه الكذب والرياء على قبور آباءكم ؟ واي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه ارثاً لأبنائكم ؟

نفوسكم في قبضة الكاهن ، واجسادكم بين مخالب الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والاحزان . فأني شيء في الحياة يمكنكم ان تشيروا اليه قائلين : هذا لنا ؟ انعرفون ايها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهانونه وتقيمونه وصيلاً على اقدس اسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون انتم به وتحافون اظهاره .

هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها اموالهم ، ومراء يقلده المؤمنون صليباً جبيلاً فيمتشفه سيقاً سنيماً ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود

وبوثقها باللبهم ويقبض عليها بيد من حديد ، ولا يتركها حتى تنسحق
كالفضار وتبتدد كالرماد .

هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً ،
وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة اثر نعجة .

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ، وطامع
يتبع الدينار الى مغاور الجن ، ويمتصّ دماء العباد مثلما تمتصّ رسال
الصحراء قطرات المطر ، ويخيل يحرق على أنفاسه ويدخر ما لا يحتاجه .
هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج الا بسقوط البيت .
ولصّ صخريّ القلب ينتزع الدرهم من الارملة والفلس من اليتيم .

هو مخلوق عجيب له منقار النسر ومقايض النمر ، وأنياب الضبع ،
وملامس الافعى . خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته ، وافعلوا
به ما شئتم ، ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم وييسم
بحبة . اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم اجلسوه على
موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينسو جوفه بما كلكم ومشاربكم .
جذفوا على اسم ربه وافذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه ، ثم ابعثوا اليه
بجرة من الحمر او بسلة من الفاكهة فيساحكم ويوركم امام الله
والناس .

يرى المرأة فيحول وجهه قائلاً بأعلى صوته : ابتهدي عني يا ابنة
بابل . ثم يمس بصره قائلاً : الزحمة افضل من التحرق . يرى الفتيان
والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء وينف قائلاً :

باطلة الاباطيل ، وكل شيء تحت الشمس باطل . ثم يخجلي ويتنهد قائلاً :
 لتفنّ الشرائع وتضمحلّ التقاليد التي ابعدتني عن غبطة الحياة ، وحرمتني
 ملذات العمر . . . يقول للناس مستشهداً : لا تدينوا لثلاث تدانوا .
 ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ، ويبعث بأرواحهم
 الى الجحيم قبل ان يبعدهم الموت عن هذه الحياة . يحدثكم رافعاً عينيه
 بين الآونة والاخرى نحو العلا ، اما فكرته فتظلّ مناسبة كالافعى
 حول جبوكم . يناديكم بقوله لكم : يا اولادي ويا أبنائي . وهو لا يشعر
 بالمعاطفة الابوية ، ولا تقسم شفتاه لرضيع ، ولا يحمل طفلاً على منكبيه .
 يقول لكم هازماً رأسه بتخشع : لتترفعن عن العالميات ، لأن اعمارنا
 تضمحلّ كالاضباب ، وایماننا تزول كالغني . واذا نظرتكم جيداً رأيتموه
 متمسكاً بأذيال الحياة ، متشبهاً بأهداب العمر ، متأسفاً على ذهاب
 الایس ، خائفاً من سرعة اليوم ، متوقفاً بحجب الغد .

يطلب منكم الاحسان وهو اوفر منكم مالاً ، فإن اجبتموه يبارككم
 علناً ، وان منعتموه يلعنكم سرّاً . في الهبكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين ،
 وحول منزله يصرخ الجائعون ، وامام عينيه تده ايدي البائسين ، فلا
 ينظر ولا يسمع . . . يبيع صلاته ، ومن لا يشتري يكون كافراً بالله
 وانبيائه ، محزوماً من الجنة والنعم .

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم ايها المسيحيون . هذا هو الراهب
 الذي يمتصّ دماءكم ايها الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم اشارة
 الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله . هذا هو الاسقف الذي
 تقيمونه خادماً فينقلب سيّداً ، وتطوبونه قديساً فيحير شيطانياً ، وترفعونه

ثائباً فيصبح نيراً ثقيلاً . هذا هو الظل الذي يتبع ارواحكم منذ بلوغها
هذا العالم حتى رجوعها الى الابدية . هذا هو الرجل الذي جاء في هذه
الليلة لكي يدينني ويرذلني ، لأن روحي تمردت على اعداء يسوع الناصري
الذي احبكم ودعاكم اخوة له ثم صلب من اجلكم .

وتهلل وجه الشاب المكتوف ، وقد شعر باليقظة الروحية المتأيلة
في صدور سامعيه ، وانضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين
اليه ، فرفع صوته وزاد قائلاً : قد سمعتم ايها الاخوة بأن الشيخ
عباس قد اقامه الامير امين الشهابي سيداً على هذه القرية . وسمعتم
ايضاً بأن الامير قد اقامه المليك حاكماً على هذا الجبل . فهل سمعتم
او رأيتم القوة التي اقامت المليك رباً على هذه البلاد ؟ انتم لا ترون
تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ، ولكنكم تشعرون بوجودها
في اعماق ارواحكم ، وتسجدون امامها مصلين مبتهلين وتنادونها
بقولكم : ابانا الذي في السموات .

نعم ان اباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والامراء ، وهو القادر
على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بأن اباكم الذي احبكم وعلمكم
سبل الحق بواسطة انبيائه يريد ان تكونوا مظلومين ومرذولين ؟ هل
تعتقدون بأن الله الذي ينزل السحاب مطراً ، ويستنبث البذور زرعاً ،
وينمي الزهور اثماراً ، يريد ان تكونوا جوعاً محتقرين لكي يبقى
واحد بينكم منتفخاً متلذذاً ؟ هل تعتقدون بأن الروح السرمدي الذي
يوحي اليكم محبة الزوجة والرافة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم
سيداً قاسياً يظلمكم ويستعبد ايامكم ؟ هل تعتقدون بأن النواميس

الازلية التي تحجب اليكم نور الحياة تبعث اليكم بمن يجب اليكم ظلمة الموت ؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القوى في اجسادكم لكي تعود وتخضعها امام الضعف ؟

انتم لا تعتقدون بهذه الاشياء ، لأنكم اذا فعلتم تكونون كافرين بالعدل الالهي ، جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس . اذا اي شيء يجعلكم تساعدون الشرير على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم احراراً الى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتوردين على ناموسه ؟ كيف ترفعون اعينكم نحو الله القوي وتدعونه اباً ، ثم تخنون رقابكم امام الانسان الضعيف وتدعونه سيداً ؟ كيف يرضى ابناء الله ان يكونوا عبيداً للبشر ؟ اما دعاكم يسوع اخوة ، فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدماً ؟ اما جعلكم يسوع احراراً بالروح والحق ، فكيف يجعلكم الامير عبداً للحيث والفساد ؟ اما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء ، فكيف نخفضونها الى التراب ؟ اما سكب يسوع النور في قلوبكم ، فكيف تغمرونها بالظلام ؟

ان الله قد بعث ارواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزود جمالاً باستطلاعها خفايا الايام والليالي ، فكيف تلحقونها بالرماد لتتبدد وتنطفئ ؟ ان الله قد وهب نفوسكم اجنحة لطير بها ساحة في فضاء الحب والحسنة ، فلماذا تجزونها بأيديكم وتبدون كالحشرات على اديم الارض ؟ ان الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة ، فكيف تنزعونها وتطرحونها على الصخر لتلثقها الغراب وتذريها الارباع ؟ ان الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على

سبل الحلق وقلاؤا صدورهم بأغاني الكيان وتركوا لهم غبطة الحياة
ارثاً ثميناً ، فكيف همجعون وتخلفونهم امواتاً بين ايدي الدهر ،
غرياء في ارض مولدهم ، نساء امام وجه الشمس ؟ اوليس الوالد
الذي يتوك ابنه الحر عبداً ، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً
فيعطيه خبزاً ؟ اما رأيتم عصافير الحقل تدرّب فراخها على الطيران ،
فكيف تملئون صغاركم جرّ القيود والسلاسل ؟ اما رأيتم زهور
الادوية تستودع بذورها حرارة الشمس ، فكيف تسلمون اطفالكم
الى الظلمة الباردة ؟

وسكت خليل هنيهة كأن افكاره وعواطفه قد نمت واتسعت
فلم تعد ترتدي الالفاظ ثوباً ، ثم قال بصوت منخفض : ان الكلام
الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من
اجله ، والروح التي شعرت بتسوجاتها في قلوبكم هي الروح التي
اوقفني مكتوفاً امامكم ، فاذا وثب عليّ سيد حقوقكم وكاهن
كنيستكم وصرعاني اموت سعيداً فرحاً ، لأنني باظهارى لكم حقيقة
ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد قممت مشيئة بارئي وبارئكم .

كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضطرب لها قلوب
الرجال الناظرين اليه بإعجاب يشابه استغراب الاعمى اذا ما ابصر
فيجأة ، وتهتز حلالاتها نفوس النساء المحدثات به بأعين طافحة بالدموع .
اما الشيخ عباس والجوري الياس ، فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان
كالمطروحين على وسائد من الاشواك . وقد حاول كل منهما ان يوقف
الشاب عن الكلام فلم يستطع ، لأنه كان يخاطب الجميع بقوة علوية

نشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها .

ولما انتهى خليل من كلامه ، وقد تراجع قليلاً الى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم ، حدث سكوت عميق كأن روحه المرفقة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حوَّات بصائر القرويين نحو مكان قصي وانتزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن واوقفتها مرتعشين امام اشباح ضيئتهما المزعجة .

حينئذ وقف الشيخ عباس ، وقد تقلصت ملامحه واصفر وجهه ، وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلاً بصوت مخنوق : ما اصابكم ايها الكلاب ؟ هل تسمت قلوبكم وجيدت الحياة في داخل اجسادكم ، فلم تعودوا قادرين على غزيق هذا الكافر المهذار ؟ هل اكتنفت روح هذا الشيطان ارواحكم وكبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا ابادته ؟

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليرقع به ، فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً يهدوء : أعند سيفك يا سيدي ، لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك .

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً : هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته ؟

فأجابه الرجل : الخادم الامين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة .

وتقدم رجل آخر وقال: لم يقل هذا الفتي شيئاً يستوجب الحكم،
فلماذا تضطهده ؟

ورفعت امرأة صوتها وقالت : لم يقذف بالدين ولم يحذف علي
اسم الله ، فلماذا تدعوه كافراً ؟

فتشجعت راحيل اذ ذاك وتقدمت الى الامام وقالت : ان هذا
الشاب يتكلم بالسفينة ويتظلم عتاً ، ومن يريد به شراً يكون عدواً
لنا .

فقال الشيخ عباس صارفاً أسنانه : وانتِ تتردين ايضاً ايها الارملة
الساقطة ؟ هل نسيتِ ما اصاب زوجك عندما تمرد علي منذ خمس
سنوات ؟

فشقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة
كمن ادرك سرّاً هائلاً ، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها :
هل سمعتم القاتل يعترف بجرمته في ساعة غضبه ؟ الا تذكرون ان
زوجي قد وجد قبلاً في الحقل ، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنه
كان مخبئاً وراء هذه الجدران ؟ الا تذكرون ان زوجي كان رجلاً
شجاعاً ؟ اما سمعتموه متكلماً عن مكاره الشيخ عباس مندداً بأعماله
متزهداً علي قساوته ؟

ها قد أبانت السماء قاتل جاركم واخيكم واوقفته امامكم ،
فانظروا اليه وانظروا جرمته مكتوبة على وجهه المصفر . انظرووه
متمللاً جازعاً . تأملوا كيف قد ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم

محدقة به . انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقصبه المروضه . انظروا الجبار العظيم مرتاعاً امامكم كالعبد الخاطيء . ان الله قد اراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه ، وابلان لكم النفس الشريرة التي جعلتني ارملة بين نساءكم ، وتركتم ابنتي يتيمة بين ابنائكم .

وبينا راحيل تتكلم صارخة وألفاظها تنقض كالصواعق على رأس الشيخ عباس ، وضجيج الرجال وزفرات النساء تتسوج كشمعات النار والكبريت حول دماغه ، وقف الكاهن وأخذ يساعده واجلسه على المقعد ، ثم نادى الخدم بصوت مرتجف قائلاً :

اقبضوا على هذه المرأة التي تهتم سيدكم زوراً وجروها مع هذا الشاب الكافر الى غرفة مظلمة ، ومن يعترضكم يكون شريكاً لها بالجريمة ، محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدسة .

فلم يتحرك الخدام من اماكنهم ، ولم يحفلوا بأوامر الكاهن ، بل لبثوا جامدين محدقين بخليل المكنوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينته وشماله ، كأنها جناحان قد فتحنهما ليطير ويحلق بهما في السحاب .

فقال الكاهن ولحيته تتوافض حنفاً : هل تكفرون بنعمة سيدكم ايها الاجلاف ، وتبحدون فضله وتنكرونه من اجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة ؟

فاجابه اكبر الخدام سناً وقال : قد خدمنا الشيخ عباس لقاء الحبز والمأوى ، ولكننا لم نكن له عبيداً قط . قال هذا وتزع عبايته وكوفيته وطرحهما امام الشيخ عباس وزاد قائلاً : لا اريد ان انعم

جسدي بهذه الملابس الخفيفة كما تبقى نفسي متعذبة في منزل سفاك
الدماء .

ف فعل الخدام كافة نظيره وانضموا الى الجمع ، وعلى وجوههم
سياء الانعتاق والحرية .

فلما رأى الطوري الياس ما فعلوه ، وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد
تضعفت ، فخرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة التي انت بخليل
الى تلك القرية .

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحلّ وثاق خليل ونظر الى الشيخ
عباس المرتقي على كرسية كجثة هامدة ، وبهجة مملوءة بالعزم والارادة
خاطبه قائلاً : ان الشاب الذي احضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم
اثيم ، قد اثار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحق والمعركة .
والارملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة ، قد ابانت لنا السر الخائل
الذي ظلّ مكتوماً خمسة اعوام . اما نحن فقد تراكضنا مسرعين
الى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل .

والآن وقد انفتحت اعيننا وأرّتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك
القاسية تغادرك منفرداً ولا ندينك ، ونهالك ولا فشكوك ، ونبتعد
عنك طالبين من السماء ان تفعل فشيئها بك .

وارتفعت اذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة ،
فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي
ونذهب الى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب الى بيت راحيل

ونسبح حكيمته المعزية وأقواله العذبة . وذاك بيتف : لنفعلن ارادة خليل ، فهو أعلم بحاجتنا وأدرى منا بطالبنا . وغيره يقول : ان كنتا نريد العدل والانصاف فلنذهب غداً الى الامير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب اليه ان يعاقبه . وآخر يصيح : يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلًا مثلاً له في هذه القرية . وغيره يقول : يجب أن نشكو الحوري الياس الى الاسقف لأنه يشارك الشيخ بجميع أعماله .

وبينا هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية ، وتهبط كالسهم الحادة على صدر الشيخ الخفوق ، رفع خليل يده وأسكت الجميع بإشارة ، ثم ناداهم قائلاً : اسمعوا وتبصروا أيها الاخوة ولا تكونوا متسرعين . أنا أطلب اليكم باسم محبتي ألا تذهبوا الى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ ، لأن الكواسر لا ينهش بعضها البعض . ولا تشكوا الكاهن الى رئيسه ، لأن الرئيس يعلم أن البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب ، ولا تطلبوا ان أكون مثلاً للحاكم في هذه القرية ، لأن الخادم الأمين لا يريد ان يكون عوناً للسيد الشرير . ان كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم ، دعوني أعيش بينكم وأشاركم بأفراح الحياة واجزانها ، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل ، لأنني ان لم أكن كواحد منكم أكن كالمرايين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر .

والآن ، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، تعالوا نذهب نار كين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي

يشرق شمس على الأبرار والاشرار .

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأن في شخصه قوة
تتحول فحوها الأبحار كيفما تحوَّلت . وبقي الشيخ منفرداً كالبرج
المهدوم ، متوجهاً كالفائد المغلوب . ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة
وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضية في السماء
التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالأخفاف الناظرة
إلى راعيها ، فتحرَّكت روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين
المساكين رمز الشعوب المظلومة ، وشاهد في تلك الأكواخ الحظيرة
المكتفة بالثأرج المتجذلة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان . فوقف
وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال ، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن
نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجرّ قيود العبودية في تلك
الأودية ، فرفع كفيه نحو العلاء ، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ
قائلاً :

من أعماق هذه الأعماق تناديك آيتها الحرة فاسمعينا . من جوانب
هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا . وعلى هذه الثلوج نسجد
أمامك فارحمنا . أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا
أثواب آباءنا الملطخة بدمائهم ، غافرين شعورنا بتراب القبور المزوج
ببقاياهم ، حاملين السيوف التي اغمدت بأكبادهم ، رافعين الرماح التي
خرفت صدورهم ، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم ، صارخين الصراخ
الذي جرح حناجرهم ، ناشئين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين
الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ، فاضفي آيتها الحرة واسمعينا .

من منبع النيل الى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متوجهاً
مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة الى جبهة لبنان تمتد اليك
الايدي مرتعشة بنزاع الموت ، ومن شاطئ الخليج الى أذبال الصحراء
ترتفع نحوك الأعين مغبورة بذنوبك الأثمة . فالتفتي أيتها الحرية
وانظرينا . في زوايا الأكواخ القائنة في ظلال الفقر والهم والحزن
أمامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الخالصة في ظلمة الجهل والغبوة
نطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور
والاستبداد نحن اليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا .
في المدارس والمسكاتب تناجيك الشبيبة الياسة ، وفي الكنائس
والجوامع يستميلك الكتاب المترك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث
بك الشريعة المهلهلة ، فاشفقي أيتها الحرية وخلصينا . في شوارعنا
الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي ثمنها للصوم المغرّب ، ولا من ينصحه ،
وفي حقولنا المجعدة يحفر الفلاح الأرض بأظافره ، ويزرعها حبات قلبه ،
وبسقيها دموعه ، ولا يستغل غير الأشواك ولا من يعلمه . وفي سهولنا
الجرداء يسير البدوي غارياً خافياً جائعاً ولا من يترأف به . فنكلمي
أيتها الحرية وعلمينا .

نعاجنا ترمي الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب ،
وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلاً من الذرة ، وخيولنا تلتهم المشيم
بدلاً من الشعير . فهل لي أيتها الحرية واثقدينا .

منذ البدء وظلام الليل يحيم على أرواحنا ، فمتى يجيء الفجر ؟ من
الجحوس الى الجحوس تنتقل أجناسنا والايام تمر بنا ساخرة ، وإلى متى نحتمل

سخرية الأجيال ؟ ومن نير ثقيل الى نير أثقل تذهب أعناقنا وامم
الأرض تنظر من بعيد ضاحكة مثا ، وإلام نصبر على ضحك الامم ؟
ومن القيود الى القيود تسير ركبنا ، فلا القيود تفي ولا نحن نقرض ،
فإلى متى نحيا ؟

من عبودية المصريين الى سبي بابل الى قساوة الفرس الى خدمة
الافريقين الى استبداد الروم الى مظالم المغول الى مطامع الافرنج ،
فإلى أين نحن سائرُونَ الآن ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

من مقابض فرعون الى مخالب نبوختنصر الى أطافر الاسكندر
الى أسياف هيروودس الى برائن نيرون الى أنياب الشيطان ، فإلى يد
من نحن ذاهبون الآن ، ومتى نبلغ قبضة الموت فترتاح من سكينه
العدم ؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم ، وعلى
ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم ،
وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحتى متى نبني
القصور والصروح ، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، وغلاً
الأهراء والحزائى ، ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوى الحرير
والصوف ، ولا نلبس غير المسوح والأطمار ؟

بجشهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة ، وأبعدوا الطائفة
عن الطائفة ، وبغضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى تنبدد كالرماد أمام
هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع كالأسبال الجائعة بقرب هذه الجيفة
المنتنة ؟

لحفظ عروشهم وطمانينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي ،
وحمّسوا الشيعي لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي ،
وشجّعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي . فحتى متى يصرع الأخ أخاه على
صدر الأم ، وإلى متى يتوعد الجار جاره بجانب قهر الحبيبة ، وإلام
يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله ؟

اصفي أيتها الحرية واسمعينا ، التفقي يا أم ساكني الأرض وانظرينا ،
فتحن لسنا أبناء ضرّتك . تكلمي بلسان فرد واحد متاء ، فمن شرارة
واحدة يشتعل القش اليابس . أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من
رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق ، وينير بلحظة خلایا الاودية
وقمم الجبال . بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة
واهدمي كالمخنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة
بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع .

اسمعينا أيتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة ائتنا ، انقذينا يا اخت رومة ،
خلصينا يا رفيقة موسى ، اسعفينا يا حبيبة محمد ، علمينا يا عروسة يسوع ،
قوّي قلوبنا لنجيا ، أو شدي سواعد أعدائنا علينا فنحن ونقرض
ونرتاح .

كان خليل يناجي السماء وعبون الفلاحين محدقة به ، وعواطفهم
تنسكب مع نغمة صوته ، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه ، وصدورهم
تحقق نبضات قلبه ، فكانه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح
من الجسد . ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء : فسد
جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار ، وأوقفنا

المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم كالفرأخ تحت جناحي
الروح الخالدة . فليذهب الآن كل منا الى فراشه لينام متوقفاً لقاء
أخيه في الصباح .

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راجيل ومريم الى كوخهما .
فتفرق اذ ذاك الجمع وذهب كل الى بيته مفكراً بما سمعه وراًة ،
شاعراً بلامس حياة جديدة في داخل نفسه .

ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت السكينة
وشاحها على تلك القرية ، وحملت الاحلام أرواح الفلاحين فاركة روح
الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل ، مرتعدة أمام ذنوبه ، متعذبة
بين أبواب هواجسه .

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويين ،
محدثاً أباهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم ، مصوراً
لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين ، مردداً على مسامعهم أخبار الحكام
القساة ، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالتواמים
الأزلية التي تقيد الأجرام بعضها ببعض ، فكانوا يصفون اليه بفرح
يضارع بهجة الحقول الخضراء بانعطال الأمطار . ويرددون كلامه في
خلوتهم ملبسين نسات مقاصده أجساداً من محبتهم ، غير حافزين
بالخوري لباس الذي أصبح يتولف اليهم منذ ظهور جريئة حليفه الشيخ ،
ويقرب منهم لئناً كالشع بعد أن كان صلباً كالرخام .

أما الشيخ عباس فقد أصيب بعلّة في نفسه شبيهة بالجنون ، فكان
يسير ذهاباً وإياباً في رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادي خدامه
بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ، ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي
لمعاونته غير زوجته المسكينّة التي عانت من خشونة طباعه ما قساها
الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت أيام الصوم ، وأعلنت
السما قدوم الربيع ، انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء ، فمات
بعد نزاع موجع مخيف ، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف
غاية أمام ذلك العرش الذي لشعر بوجوده ولا نراه . وقد اختلفت
آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول قد اختلّ شعوره

فَقَضَى مَجْنُونًا ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ قَدْ سَمِمَ الْيَأْسُ حَيَاتَهُ عِنْدَمَا زَالَتْ سَطْوَتُهُ
فَمَاتَ مُنْتَحِرًا . أَمَّا النِّسَاءُ الْمُلَوِّقَاتُ ذَهَبَ لَتَعْرِيزَةِ زَوْجَتِهِ فَأَخْبِرُنَ رَجُلَهُنَّ
بَأَنَّهُ مَاتَ خَائِفًا مَرْتَاعًا ، لِأَن شَيْخَ سَمْعَانَ الرَّامِي كَانَ يَظْهَرُ لَهُ مَرْتَدِيًّا
أَتَوَابًا مَلْعُوقَةً بِالدَّمَاءِ ، وَيَقْوَدُهُ كَرَهًا عِنْدَمَا يَنْتَحِفُ اللَّيْلُ إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي وَجَدَ فِيهِ مَصْرُوعًا مِنْذُ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ .

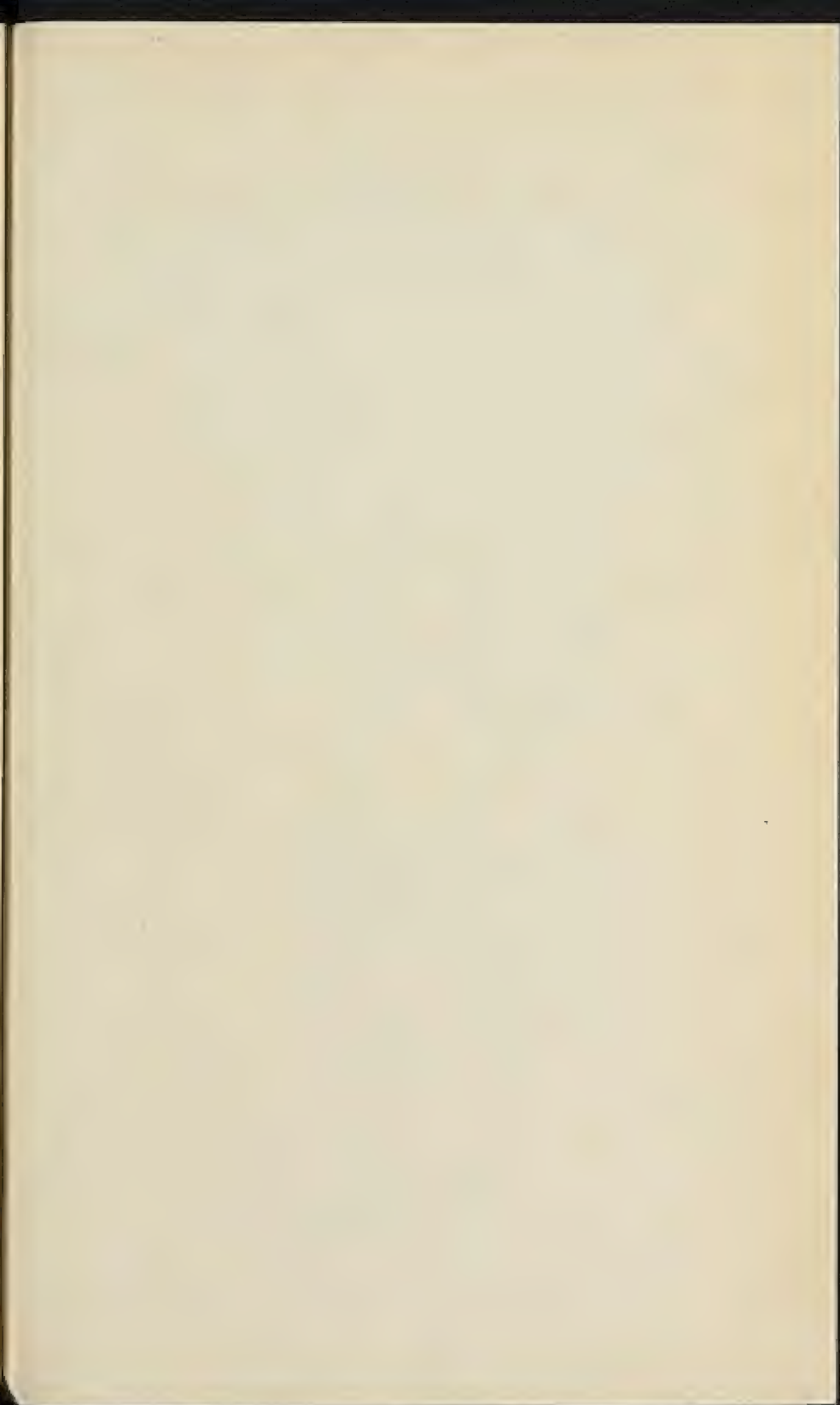
وَأَعْلَنْتُ أَيَّامَ نَيْسَانَ لِسُكَّانِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ سِرَّائِرَ الْحُبِّ الْخَفِيَّةِ الْكَائِنَةِ
بَيْنَ رُوحِ خَلِيلٍ وَرُوحِ مَرْيَمَ ابْنَةِ رَاحِيلَ ، فَتَهَلَّلَتْ وَجُوهُهُمْ فَرَحًا ،
وَرَقَصَتْ قُلُوبُهُمْ ابْتِهَاجًا ، وَلَمْ يَمُودُوا بِخُشُونِ ذَهَابِ الشَّابِّ الَّذِي أُيْقِظَ
قُلُوبُهُمْ إِلَى مُحِيطِ أَوْسَعٍ وَأَرْقَى مِنْ وَسْطِهِمْ ، فَطَافُوا يَبْشُرُونَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا بِصَيُورَتِهِ جَارًا قَرِيبًا وَصَهْرًا مَحْبُوبًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ .

وَلَمَّا جَاءَتْ أَيَّامُ الْحَصَادِ خَرَجَ الْفَلَاحُونَ إِلَى الْحَقُولِ وَجَمَعُوا الْأَغْنَامَ
عَلَى الْبِيَادِرِ ، وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ عَبَّاسُ هُنَاكَ لِيَتَحَبَّبَ الْفَلَّةُ وَيَحْمِلَهَا
إِلَى أَهْرَائِهِ وَمَخَازِنِهِ ، بَلْ كَانَ كُلُّ مِنَ الْفَلَاحِينَ يَسْتَفْلِلُ الْحَقْلَ الَّذِي
فَلَحَهُ وَزَرَعَهُ ، فَاِمْتَلَأَتْ تِلْكَ الْأَكْوَاخُ مِنَ الْقَمْحِ وَالذَّرَّةِ وَالْحُمُرِ
وَالزَّيْتِ .

أَمَّا خَلِيلٌ فَكَانَ يَشَاطِرُهُمُ الْإِنْتِمَاءَ وَالْمَسْرَاتِ وَيُسَاعِدُهُمْ بِجَمْعِ الْفَلَّةِ
وَعَصْرِ الْعَنْبِ وَاجْتِنَاءِ الْأَثْمَارِ . وَلَمْ يَكُنْ يَمَيِّزُ نَفْسَهُ عَنِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ
إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَنَشَاطِهِ .

منذ تلك السنة الى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالاعتاب ، ويجمع بالسرعة ثمار البستان الذي غرسه بالمشقة ، فصارت الأرض ملكاً لمن يفلحها ، والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحراثها .

والآن ، وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة ، وراودت البقطة أجفان اللبنانيين ، يمرّ المسافر على طريقه الى غابة الأرز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي ، فيرى أكواخها قد صارت بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الحصبة والحدائق الناضرة ، وان سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجبه مشيراً نحو حجارة متقوّضة وجدران مهدومة مرتبة قائلاً : هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته . وان سأل عن خليل يرفع يده الى العلاء قائلاً : هناك يسكن خليلنا الصالح ، أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا ، فلن تمحوه الأيام والليالي . . .



فهرست

٧	.	.	المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران
١١	.	.	جبران في آثاره العربية

الموسيقى

٥٤	النهارند
٥٥	الاصفيان
٥٥	الصبا
٥٦	الرصد

عرائس المروج

٦١	رماد الاحياء والنار الخالدة
٧٥	مروءة البانية
٨٩	يوحنا المجنون

الأرواح المتمردة

١٠٧	وردة الهاني
١٢٧	صراخ القبور
١٤٠	مضجع العروس
١٥٢	خليل الكافر

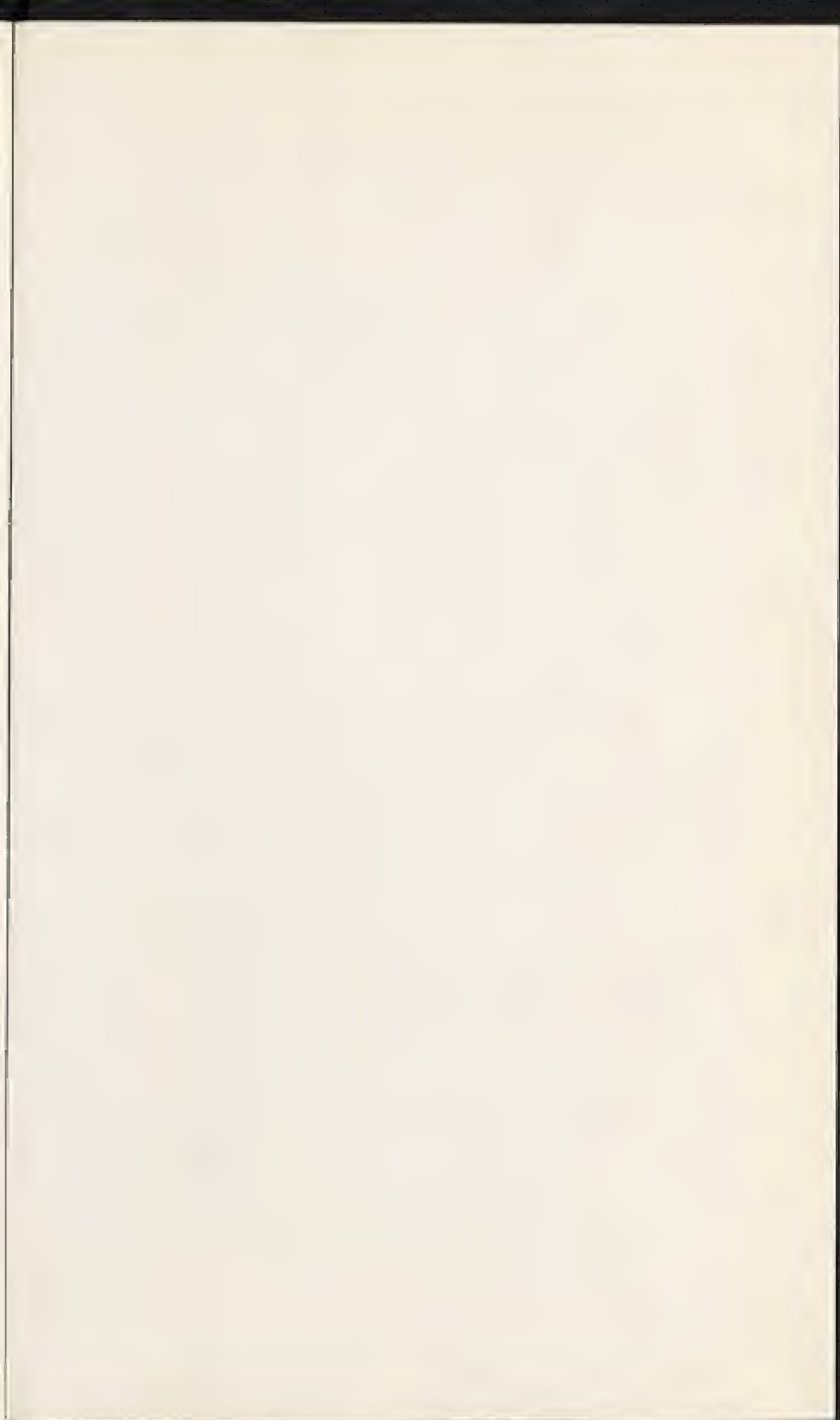
X³
3

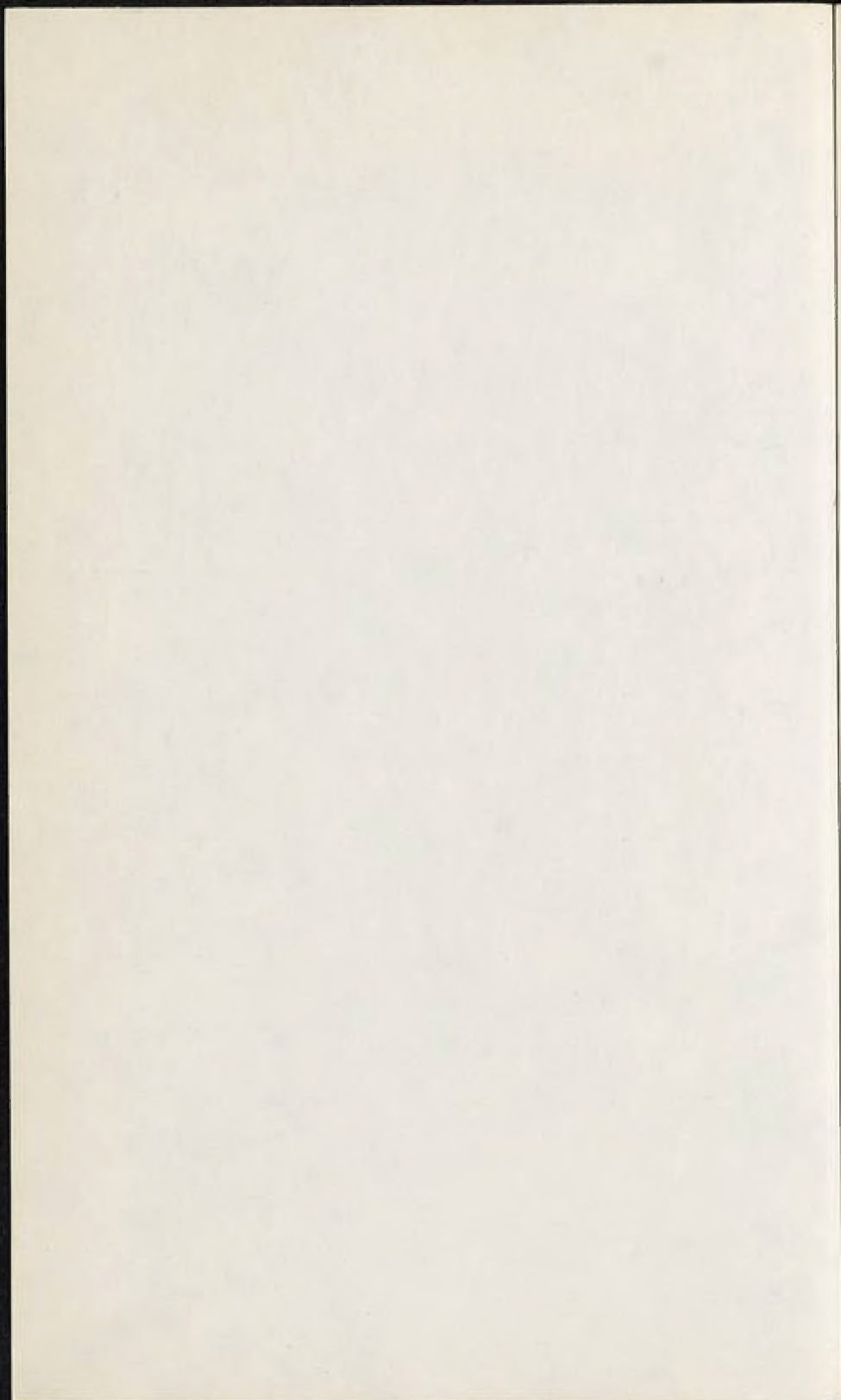
منطقة المنازل : ٨ - ١٩٤٩

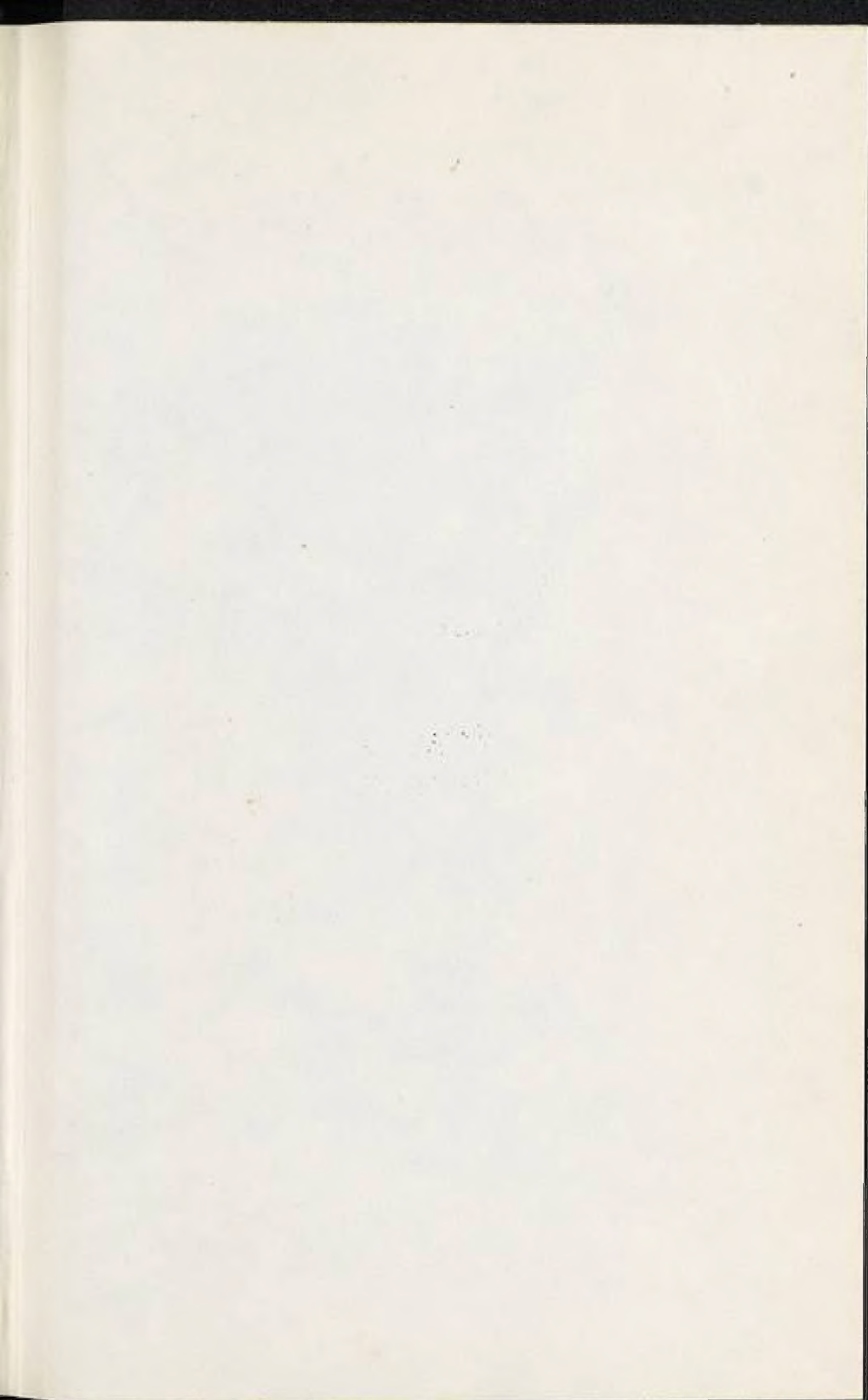
3027-2-2

(٤٢)











**Elmer Holmes
Dobson Library**

**New York
University**

